80 يوم في جلاسكو

روايـة

إسلام ماضي

اسم الكتاب : 80 يوم في جلاسكو
التأليف : إسلام ماضي
تدقيق لغوي : نبيلة غنيم
تصميم الغلاف : منار عثمان
إخراج الكتاب : أسامة أحمد خوجلي
الطبعة الأولى : 2024/2023
رقم الإيداع : 2023/29003
الترقيم الدولي : 978-977-8972-90-0
الناشر : المصرية السودانية الإماراتية
الدار المصرية السودانية الإماراتية : Facebook
Email : mahaelmukdad@gmail.com
TEL : 00 20 128 9024 05

أقر المؤلف بأنه وحده صاحب الحقوق الفكرية للكتاب، وأنه يضمن للناشر عدم التعرض من الغير بخصوص الملكية الفكرية، كما صرح أن هذا الكتاب ليس في مضمونه ما يمنعه القانون، وأن الآراء والأفكار التي يتضمنها محتوى الكتاب تعبر عن فكر المؤلف فقط ولا يعبر عن رأى الناشر، ولا يوجد داخل الكتاب نقل أو استعارة بما قد يعرّض الناشر للمسؤولية القانونية.

رواية 80 يوم في جلاسكو

إسلام ماضي

إهداء

إلى البطلة التي حاربت في صمت، وتحملت رحلة الألم من بدايتها وحتى النهاية بلا تذمر متقبلة المحنة والبلاء بصدر رحب.

كافحت بمفردها إلى أن لفظت أنفاسها الأخيرة دون أن تفقد إيمانها أو ثقتها بالله.

إلى بطلتي "إنتصار" وإلى كل بطل أو بطلة سار أو يسير على شاكلتها.

إسلام ماضي

مقدمة

تتحقق أحلامنا وننال رغائبنا بقدر معلوم ووقت محسوم. لا علاقة له بمقدار الجهد المبذول، أو مدى التعب والكد ليصير ما نحلم به واقعًا ملموسًا وليس مجرد سراب يراه الظمآن ماءً. ربما يتأخر ذلك قليلًا أو كثيرًا، وأحيانًا أخرى يتبخر كليًا لأننا لا نستحقه أو لأنه ليس الوقت المناسب لتحققه .. من المحتمل أن الحكمة في ذلك أن ندرك قيمة الأشياء عندما نحصل عليها بعد كد، وتعب وطول انتظار. ننعم بالسعادة بتحقق أحلامنا بعد فقدان الأمل في الحصول على مآربنا ورؤية آمالنا حقيقة، عندما يتجدد الأمل مرة أخرى ويظهر شعاع نور خافت يشعر به القلب قادمًا من جوف الظلام الحالك المليء باليأس والإحباط، يعيد لنا الأمل الذي بدونه تصبح الدنيا بلا معنى أو هدف .نشعر ساعتها بسعادة لا توصف. سعادة تساوى في مقدارها ألف ضعف السعادة التي نشعر بها عندما تتحقق أحلامنا وننال مرادنا دون تعب أو كد أو بدون فقدان الأمل وعودته وطول الانتظار أملًا في استجابة صلواتنا.

إسلام ماضي – 80 يوم جلاسكو

جثة وسط الثلوج

لماذا ذلك السبت مشمس على غير عادة؟ وقد سبق ذلك الصباح ثلاثة أيام مثلجة تعطلت خلالها الدراسة بسبب الهطول المتواصل للثلوج وأدى ذلك إلى إغلاق الطرق، واستحالة الانتقال إلى أي مكان أو مغادرة (جودرن هيل) حيث المخيم السكني لطلاب جامعة سترثكلايد والمعلمين المصرين أعضاء البعثة التعليمية المرسلة من قبل وزارة التربية والتعليم المصرية. فليس هناك من سبيل للتوجه إلى مقر جامعة ستراثكلايد الكائن في " جورج سكوير" في وسط مدينة جلاسكو باسكتلندا.

شجعت الشمس الدافئة - بأشعتها شحيحة الظهورعادةً في بلاد الشمال تلك خصوصًا في فبراير أو مارس - البعض على الخروج للتريض بينما يشاهدون الجليد يذوب من وهج وحرارة شمس دافئة ظهرت خلسة دون أن تدرى سحب الشتاء القاتمة المعتمة عنها شيء. بعد أقل من ربع ساعة سمع صوت صرخات وتعالت تلك الصرخات، وكذلك دوت صفارات سيارات الشرطة والاسعاف و.في أقل من خمسة عشر دقيقة كان هناك تجمع حول مصدر الاستغاثة.

كعادة المصريين توجه الجمع الذي سمع الصراخ إلى مصدره حيث رأى أحد الطلاب جثة كانت مدفونة بين بعض الشجيرات التي يغطيها الجليد، وظهرت أجزاء منها فور ذوبان الجليد حولها بفعل أشعة الشمس.

ولكن جثة من تلك؟

الجثة لشاب في منصف الثلاثينيات ذو ملامح شرقية. نعم هو مصري.

أيعقل أن يكون أحد أفراد البعثة التعليمية المصرية؟

لا لم يكن واحدًا منهم ولم يتعرف عليه أي من الطلاب الأوروبيين الموجودين، على عكس كل المصريين الذين تعرفوا علي صاحب الجثة على الفور .

إنها جثة "بيتر مجدي". ذاك المصري الذي كان يتردد على المخيم لزيارة "أحمد منصور".

لم يكن أحد على علم بما يدور بين أحمد وبيتر سوى "نسيم وصفي" صديق أحمد منصور الصدوق والذي تعرف على أحمد وكونا صداقتهما في الأيام الأولى من البعثة. إن لم تكن لديك تلك المعلومة فستظن أن أحمد منصور ونسيم وصفي أصدقاء مقربين منذ الطفولة وليس فقط منذ مدة لم تتجاوز الشهرين.

بعض الحضور تطوع ليخبر الشرطة عن هوية القتيل الذي يبدو أنه قتل بضربة على رأسه بآداة معدنية قوية، البعض الآخر انسحب بسرعة عائدًا إلى سكن الطلاب لينقل الخبر، الأهم في الأمر أن كل المصريين العارفين بقصة الجثة أجمعوا على شيء واحد وهو أنهم استنتجوا أن قاتل بيتر مجدي هو أحمد منصور.

لماذا؟

لا أحد ينسى ذلك الشجار الذي حدث بين القتيل وبين أحمد منذ يومين والذي قام أحمد على إثره بطرد القتيل من غرفته، وهدده بالقتل إن رآه مرة أخرى في المخيم .

ثم وفي الليلة التالية وأثناء مشاهدة التلفاز ليلًا وصل بيتر إلى صالة التلفاز، وطلب من أحمد أن يخرجا سويا للتمشية، وتسوية الخلاف بينهما، ورغم غضبه العارم والشرر الذي كاد الجميع يراه يخرج من عينيه، وبرغم هطول الثلوج المتواصل في ذلك الوقت المتأخر لبى أحمد طلب بيتر، وخرج معه للتحدث، وتصفية الأجواء التي أصبحت عدائية، ثم عاد أحمد بعد نصف ساعة وهو منهك القوى يكاد يتجمد من البرد.

ظن الجميع وقتها أن سبب الإجهاد والتعرق رغم برودة الجو هو السير المجهد في تلك الثلوج الكثيفة وهو ما أرهق أحمد بشدة، ولم يتوقع أحد أن تكون معركة دامية قد دارت بين أحمد وبيتر أنهى أحمد حياة بيتر خلالها بضربه على رأسه ربما بماسورة مياه قديمة أو قضيب حديدي.

فور انتشار الخبر بين المصريين، جمع أحمد أوراقه المهمة، ونقوده، وبعض ملابسه في حقيبة، وذاب ذوبان الجليد هربًا من الإمساك به كمشتبه به أول في تلك الجريمة.

اختفي عن كل الأنظار، لا أحد يعلم إلى أين ذهب؟ أو أين اختفى؟ حتى صديقه المقرب نسيم فوجئ بهروبه؛ ليؤكد أحمد بذلك للجميع أنه الفاعل، وأنه القاتل.

****

جرائم الماضي

اقترف أحمد منصور العديد من الجرائم منذ نعومة أظفاره. عوقب على بعضها، وكوفئ على بعض آخر، ولم ينكشف أمره في جريمة أو جريمتين.

دعني عزيزي القارئ – إن سمحت لي بأن أدعوك بمفردة عزيزي – أن أتلو عليك صحف أحمد منصور التي تحوي كل آثامه التي وبكل تأكيد لا يعلم تفاصيلها غيري.

الجريمة الأولى **"الخيانة"**

المكان : مسرح مدرسة جنزور الابتدائية المشتركة.

الحدث: حفل السادس من أكتوبر.

يجسد أحمد شخصية بطل مسرحية ثورة العبيد من تأليف وإخراج مدرسة التربية الموسيقية الأستاذة سحر. من المفترض أن تنتهي المسرحية بالمشهد الختامي الذي تندلع فيه الثورة، ويقودها أحمد بعد أن يقتل الملكة المستبدة التي تستعبد شعبها بأكمله.

حفظ أحمد كلماته جيدًا، ولم يبدي أي تقصير في البروفات النهائية، تعول عليه الأستاذة سحر كثيرًا في نجاح ذلك العمل الذي لم يسبق للمدرسة أن نفذت مثيلًا له من قبل ،.سارت كل أجزاء المسرحية على ما يرام، وجاءت لحظة الحسم، والمشهد الختامي.

تكتشف الملكة أن أحمد خائن، وأنه قائد ثورة العبيد، وتأمره بأن يقتل نفسه؛ ليخلص روحه من آثام العصيان، ليتسنى لها مسامحته، والسماح له بدخول جنتها، يهرب أحمد مستخدمًا قوته العضلية بعد معركة مع حراس الملكة، ويقفز ناحيتها ويقتلها قائلًا العبارة الختامية:

"فلتموتي أنت من أجل حرية دولتنا، وليحيا الشعب حرًا من بعدك".

كانت تلك هي العبارة التي سينسدل الستار بعدها معلنة نهاية العرض المسرحي بفوز الثورة، وموت الملكة المستبدة.

للأسف الشديد لم تجري الأمور كما تدرب الجميع بناءً على نص المسرحية.

أسدى أحمد ضربة مميتة للثورة، فما قام به كان خيانة عظمى للثورة ولمدرسته وللأستاذة/ سحر، ولكل من يعرف نص المسرحية من الحضور.

بدلًا من أن يصرخ أحمد بعبارة "فلتموتي أنت من أجل حرية دولتنا، وليحيا الشعب حرًا من بعدك" وهو يغمد سيفه في قلب الملكة في مشهد بطولي، حدث شيء عجيب ليس له أي تفسير.

قالت الملكة جملتها:

" نعم عرفت أنك قائد الثورة وعقلها المدبر. فلتقتل نفسك أمامي لعلي أغفر لك، وتتطهر روحك الآثمة، وتعبر إلي جنة المخلصين بدلًا من أن تستقر في سعير الخونة".

انتظر الجميع أن يهرب أحمد، ويفعل ويقول ما هو مذكور في نص المسرحية، ولكن عوضًا عن ذلك تسمر مكانه بين يدي الحراس، ونظر إلى الملكة وقال:

"أموت أنا من أجل عينيك، وليحيا الشعب عبيدًا لك من بعدي."

وأخرج سيفه وغرس نصله في قلبه، وسقط على المسرح صريعًا.

انقسم الحضور بين التصفيق الحاد، والضحك الهستيري.

فمن كان يعلم بنص المسرحية، ونهايتها لم يستطع أن يتوقف عن الضحك على ما فعله أحمد بتغيير نهاية المسرحية فقط لأنه وقع في غرام الملكة ذات العيون الملونة.

أما من كان يجهل النهاية فكان التصفيق الحاد هو مكافأة منهم لأحمد على أدائه البديع في مسرحية اعتقدوا أنها رومانسية.

تلك هي الجريمة الأولى التي اقترفها أحمد فقد خان ثورة بأكملها من أجل عيون ملكة مستبدة.

****

عزيزي القارئ، أعتقد أنه أصبح الآن من حقي أن أدعوك عزيزي فأنا أقص عليك أسرار أحد أبطال حكاياتي؛ فلتنصت.

****

أحمد هو الابن الوحيد لأبويه، "وداد الشافعي" والدة أحمد تعمل محاسبة بشركة مطاحن طنطا، أما والده "منصور أحمد شهاب الدين" فهو مدرس رياضيات بمدرسة السيد البدوى الثانوية ببركة السبع، ولأن علاقة والديه ممتازة بكل الجيران وخصوصا منزل جارهم عزمي الصباغ فقد اعتمدت وداد على جارتها "سامية القصاص" كثيرًا في العناية بابنها أثناء فترة عملها، فبعد أن ينهي أحمد يومه الدراسي سواء في الحضانة، أو بعد ذلك في المدرسة يتوجه إلى منزل الخالة سامية إلى حين عودة وداد من عملها، لتكمل دور الأم مع ولدها الذي تبدأه سامية بكل الحب والإخلاص.

"سامي الصباغ" ابن عزمي الصباغ ذلك الطفل الأشقر ذو العيون الخضراء بلون الزيتون، والتي ورثها عن والدته، وذلك الشعر الأسود الناعم هو بمثابة أخ وصديق لأحمد، وأصبح رفيقه في كل مراحل التعليم الأساسي حيث أنهما في نفس العمر، لا يفترق سامي عن أحمد أبدًا إلا للنوم، وكثيرًا ما يبيت أحدهما برفقة الأخر في منزله.

أما شقيقة سامي "سارة عزمي الصباغ" تكبرهما بعامين فكانت صاحبة الأمر، والنهي، والسلطة شبه المطلقة علي أخوها سامي، وصديقه، وجارها أحمد بحكم فارق العمر بينها وبينهما.

أه.... نسيت أن أخبركم أن الملكة التي خان أحمد الثورة من أجل عينيها الخضراوين كانت سارة الصباغ شقيقة صديقه سامي .. لسارة بشرة خمرية، وشعر بنى داكن ينسدل على كتفيها، ولها ذلك الأنف الفرعوني الصغير الذي يتوافق تمامًا مع تلك العيون الملونة بلون بين العسلي، والأخضر الزيتوني بنفس درجة لون عيني شقيقها ووالدتها. باختصار شديد إن سارة جميلة مليحة، وساحرة. استعاض أحمد عن عدم وجود أخوة أشقاء من والديه بوجود سامي وسارة في حياته فكانت النتيجة أن ثلاثتهم مجتمعين دومًا إما للدراسة وعمل الواجبات، وإما للعب والتسلية.

إن منصور شهاب الدين، وعزمي الصباغ ليسا مجرد أصدقاء وجيران في المنزل وحسب، بل إن حقولهم متجاورة فلا يفرق بين حقليهما سوي حقل آخر مملوك لممدوح شهاب الدين شقيق منصور شهاب الدين، والذي يستأجر حقل أخيه لزراعته لعدم تفرغ منصور لأعمال الزراعة، وعدم إتقانه لها .. أما عن أحمد فهو بخلاف أبيه بارع في أعمال الزراعة، حيث تعلم ثلاثتهم ذلك من عمه عزمي. فأحمد، وسامي، وسارة يقومون جميعًا بمساعدة العم عزمي في كل أعمال الحقل، وذلك يفرحهم كثيرًا حيث أن اللعب، والتسلية في الحقل، والطريق الملاصق لترعة القاصد متعة عظيمة.

****

عزيزي القارئ – لقد تجاوزنا مناقشة أحقيتي في مناداتك بعزيزي فقد أصبح ذلك حقيقة واقعة – أنا لا أسافر بك عبر تفاصيل فرعية لأنسيك ما بدأنا حديثنا به. لقد أردت فقط أن أضع أمام ناظريك تفاصيل حياة أحمد كاملة قبل أن أستأنف قصي عليك ما ورد بصحيفة المذكور بطل حكايتي من جرائم.

فلننتقل سويًا لجريمته التالية.

الجريمة الثانية **"محاولة الانتحار"**

وبالتطرق إلى الأفعال الشنيعة التي اقترفها أحمد، فبعد جريمة الخيانة التي فعلها وهو في العاشرة، فقد حاول الانتحار وهو في سن الثالثة عشر.

كيف حدث ذلك؟؟؟

نعلم كلنا أن أحمد برفقة سامي، وسارة يساعدون عزمي في أعمال الحقل.

في اليوم المذكور كان ثلاثتهم في الحقل في انتظار العم عزمي ليعطي تعليمات المهام لذلك اليوم الصيفي.

ملَّ الأطفال من الانتظار، وقررت سارة أن تجعل الأجواء حماسية. فسألت الطفلين:

"من يرغب في تعلم السباحة"؟

صرخ أحمد بصوت عالٍ "أنا"

أما سامي فلم يرد على أخته فهو يعرف ألاعيبها جيدًا.

ذهب الجمع لضفة الترعة، وتجرد أحمد من ملابسه إلا السروال التحتي؛ مستعدًا لتلقى أول درس في السباحة من معلمته، وملكته سارة، وقف الثلاثة، ورابعهم كلبهم على ضفة الترعة، أمسكت الشيطانة الصغيرة بالكلب، وألقت به في منتصف الماء، فحرك الكلب أطرافه الأربعة، وسبح عائدًا إلى اليابسة.

نظرت سارة إلى أحمد وقالت:

"الأمر في غاية السهولة لقد تعلمت السباحة بنفس الطريقة، راقبت الكلب، وفعلت تمامًا مثلما يفعل، ونجحت.

والآن جاء دورك يا أحمد فلتقفز في الماء، وتحرك أطرافك مثلما فعل الكلب أمامك، وستعود سالمًا إلى ضفة الترعة".

قالتها، وهي تنتظر من أحمد - الذي قتل نفسه من أجلها سابقًا عندما أمرته بذلك مخالفًا نص المسرحية - أن ينفذ أوامرها. ولكن أن يقتل نفسه في تمثيلية شيء، وأن يلقى بنفسه في اليم، وهو يدرك تمامًا أنه لا يستطيع السباحة، ولن ينجو شيئًا آخر.

تردد أحمد قليلًا ثم قرر أنه لن يقفز؛ لأنه يخاف الغرق، نظرت سارة في عينيه ثم قفزت إلى الترعة، وسبحت حتى منتصفها، قفزت بكامل ملابسها، كان أحمد، وسامي يراقباها في تخوف، وقلق.

فجأة بدأت سارة تغوص في الأعماق، وتطفو، وتغوص، وتستنجد، وتغوص.

لم يفكر أحمد للحظة، وألقى بنفسه في الترعة، وحرك أطرافه مثلما فعل الكلب تماما، واستطاع أن يسبح متجها نحو سارة، كان بطيئًا، لكنه كان يسبح مثل كلب يريد النجاة من تمساح يتجه نحوه، المختلف أن أحمد كان يريد أن يصل إلى سارة قبل أن تغوص بلا عودة، وليس للهرب من زاحف مفترس.

بالفعل نجح أحمد في الوصول إلى سارة قبل أن تغرق.

ولكن.....

عندما وصل أحمد إلى سارة طفت كليًا على سطح الماء، وصرخت ضاحكةً:

"الآن تعلمت السباحة فاتبعني؛ لنعبر إلى الشاطيء الآخر، ونعود".

بالفعل تبعها أحمد، وقد أدرك أن خوفه عليها من أن تموت غريقة هو ما دفعه أن يتعلم السباحة مثلما تفعل الحيوانات، عندما يلقى بها في الماء لأول مرة فتكتشف أنها تستطيع السباحة.

انتهت المغامرة، وخلص أحمد منها بشيئين: الأول/ أنه تعلم السباحة. والثاني/ أنه لن يتواني عن التضحية بحياته لإنقاذ سارة شقيقة صديقه.

أما سارة فقد أكدت لها تلك الواقعة أنها تستطيع الاعتماد على أحمد في أي أمر مهما كان.

الجريمة الثالثة **"السرقة"**

نجح أحمد وسامي في الصف الأول الثانوي، لكن الأيام التالية تمر ببطءٍ شديد؛ لأن أحمد وكل أسرة عزمي الصباغ كانوا في انتظار نتيجة الثانوية العامة؛ ليعرفوا كم حصلت سارة على مجموع درجات، وهل سيؤهلها مجموع درجاتها ذاك للالتحاق بإحدى كليات القمة من طب، أو صيدلة، أو حتى هندسة؛ لتحقق حلم والدها الفلاح البسيط، ولتدخل السعادة على والدتها الجميلة بتحقيق حلم الوالد الكادح، والزوج المحب؟

مرت الأيام وظهرت النتيجة، كانت درجات سارة بالكاد تنقص درجة أو درجتين عن أقل كلية من كليات القمة، وحزن عزمي لذلك كثيرًا ،ونقل حزنه، وهمه للجميع، فصار الكل يلقى باللوم على سارة سبب كآبة الوالد، وحزنه إلا أحمد فقد جلس بالساعات يراقب سارة الصامتة الباكية في غرفتها.

ثم نظر لها، وأخبرها أنه على استعداد لفعل أي شيء يسعدها، ويدخل السرور على قلبها، وإن كان ذلك بقتل والدها مصدر حزنها، وسببه.

ضحكت سارة رغم الدموع التي تسيل على وجنتيها، وسألته إن كان جادًا في عرضه؟ فأقسم بأغلظ الأيمان أنه لن يتردد في فعل أي شيء يجعلها سعيدة، ويرسم البسمة على شفتيها، ويزيل الحزن من قلبها .

فكرت سارة قليلًا وقالت:

"طالما أن والدي حزين رغم مجموعي الكبير الذي يؤهلني للالتحاق بكليات عديدة محترمة، ورغم المجهود الأكبر الذي بذلته في الدراسة والتحصيل، إذن فتلكن انتفاضة ضده وتجربة فريدة، أريد أن أجرب تدخين السجائر".

هل تستطيع جلب سيجارتين لتجربتها معًا؟؟

لم تكن سارة قد أنهت كلماتها عندما انتفض أحمد، وخرج مسرعًا ثم عاد بعد ربع ساعة، وطرق باب غرفة سارة ففتحت له، فنظر لها مبتسمًا ابتسامة المنتصر، وأخرج من جيب قميصه طرفي سيجارتين، ابتسمت سارة ابتسامتها الشقية المعهودة المغلفة بالقليل من اللؤم، والمكر.

اتجها سويًا إلى سطح المنزل حيث أشعل الثنائي سيجارتيهما معًا وبعد أن استنشقا دخانها سعلا بشدة، وأطفأ كلًا منهما سيجارته، واختلط السعال بالقهقهة، والضحك فقد أدركا أن حرفة التدخين ليست مخلوقة لمثليهما، جمع أحمد بقايا السيجارتين، وألقى بهما من فوق سطح منزل سارة إلى الشارع .

نزل أحمد وسارة من فوق سطح منزلها بسلام، وكان اللبان بنكهة النعناع كفيل، وكافي لإزالة أي أثر لرائحة الدخان بفم أي منهما.

انتهت التجربة الفاشلة بعد أن نجحت في إسعاد سارة، وبالتالي شعر أحمد بالسعادة لسعادتها.

لكن توابع تلك التجربة لم تنته عند ذلك الحد .

عندما عاد أحمد إلى منزله أخبرته أمه أن والده ينتظره منذ عودته من صلاة العشاء، ويريده في أمر ضروري، ومُلِح. طرق أحمد طرقات خفيفة على باب مكتب والده، ودخل بعد أن سمح له الوالد بالدخول، وفوجئ ببقايا السجائر التي ألقى بها من فوق سطح جيرانهم أمام أبيه مبعثرة على المكتب.

سأله منصور سؤال واضح، وصريح:

"منذ متى وانت تسرق سجائر من علبتي؟

منذ متى بدأت التدخين؟ ومن علمك ذلك؟

ومن كان شريكك في هذا الجرم؟"

أجاب أحمد إنها المرة الأولى؟ وأنه أراد أن يعرف طعم السجائر، وتأثيرها، وأنكر إن كان لديه شريك في جريمته.

لم يكن منصور بالوالد القاسي، ولكنه كان معلم أجيال صارم، وجاد يعلم جيدًا أنه من أمن العقاب أساء الأدب، فكان العقاب لازمًا حتى يضمن ألا تتكرر الفعلة، أو فعلة مثيلة لها مرة أخرى.

قرر منصور أن عقاب كل سيجارة سيكون عشر جلدات على اليد بالحزام، فإن كان لأحمد شريك فليعترف، ويذكر اسم شريكه؛ لينال نصف العقاب، وإلا فعشرين جلدة ستكون من نصيب السارق المدخن.

وقد كان. فقد تحمل أحمد عشرين جلدة بحزام والده دون أن يصرخ ولو مرة رغم الألم ثمنًا ارتضاه مقابل ابتسامة رسمها على شفتي سارة، ودمعة سالت على خدها استبدلها بضحكة، وقهقهة عالية.

كان العقاب قاس، ورضي به أحمد بكل قناعة ثمنًا لجرمه، ذلك الجرم الذي لوعاد الزمن بأحمد مليون مرة لكرر فعلته المليون مرة.

الجريمة الرابعة **"عقوق الوالد"**

حدثت تلك الجريمة عندما كان أحمد في عامه الأخير من مرحلة الدراسة الثانوية العامة، والكل في انتظار النتائج.

- يعقد منصور شهاب الدين آمالًا كبيرة، وتطلعات بلا حدود على ابنه، وفلذة كبده العبقري الفذ أحمد، يعلم جيدًا قدرات ولده، والمجهود الذي بذله طوال فترة الدراسة.

إنه اليوم المعهود، والأهل، والأقارب، والجيران شهود، عاد منصور شهاب الدين من المدرسة الثانوية، وهو منصور مجبور مرفوع الرأس، فقد حصل نجله أحمد على ما قارب الدرجات النهائية بمجموع ٩٩٪.

ملئت سامية الشارع كله بالزغاريد، وبارتها وداد في ذلك، كان نزالًا في إظهار الفرحة بين الأم التي أنجبت، وأحبت، والأم التي ربت، وعشقت.

إن أحمد هو عريس اليوم الممتلئ بالفرحة، والسعادة، والجزاء الأوفى مقابل الجد، والاجتهاد، والسهر في حضرة الكتب، والمذكرات، والأوراق.

انتهى يوم الاحتفال، وبعدها بأيام يحين الوقت لكتابة الرغبات، ولصق طوابع الكليات.

لم يسأل منصور أحمد عن رغبته، أو عما يريد دراسته، فقد انفرد بالأوراق، وكتب كل البيانات، وألصق كل طوابع كليات الطب في كل أنحاء الجمهورية، ثم أتبعها بكليات الصيدلة، ولم يتبق مكان لأي كلية أخرى.

كانت مهمة أحمد في اليوم التالي في منتهى البساطة، يستقل المرفق المتجه من قريتة جنزور إلى مدينة شبين الكوم، وبحوزته ملف التقديم للترشح للمرحلة الجامعية، وتسليمه كما هو إلى مسئول لجنة التنسيق الكائن بالمقر المؤقت للجنة التنسيق الفرعية بكلية الزراعة، التي تشترك مع كليه الاقتصاد المنزلي في نفس المبنى المجاور لكلية التربية التي تدرس فيها سارة بقسم اللغة الإنجليزية، حيث قذف بها التنسيق الجامعي بعد أن فشلت أن تحجز لها مكانًا بين طلاب كليات القمة كما يطلقون عليها.

أخذ أحمد الملف الذي بات معه في غرفته تلك الليلة السابقة؛ لذهابه إلى مكتب التنسيق في الموعد المحدد، وانضم إلى الطابور الطويل، وتحرك ببطء مع الطابور حتى وصل إلى الشباك، وإلى الموظف المسئول عن استلام الملفات.

فتح الموظف الملف؛ ليتأكد من وجود كل المطلوب، ومن أن طوابع الرغبات قد ألصقت بطريقة صحيحة، لشدة اندهاشه نظر الموظف إلى أحمد وسأله:

لماذا يوجد الطابع الخاص بكلية التربية قبل كل طوابع الرغبات الأخرى رغم أن مجموع درجاتك يؤهلك لدخول أي كليه تريدها؟

نعم، حدث ما فكرت فيه توًا يا عزيزي القارئ.... لقد تلاعب أحمد بالرغبات، وألصق طابع كلية التربية بشبين الكوم جامعة المنوفية فوق طابع كلية الطب جامعة المنوفية، الذي كان والده قد وضعه كأول رغبة .

نعم، عصى أحمد والده، وعقه من أجل أن يلحق بسارة، وينضم إليها في كلية التربية، وربما يريد أن ينضم أيضًا لقسم اللغة الإنجليزية؛ ليسير على خطاها.

لم يذكر أحمد أيًا مما فعله ببطاقة الرغبات أمام أي إنسان حتى سارة ملكته المستبدة، ومالكة أمره .

بعد أسبوع تلقى أحمد خطابًا بالبريد المسجل، مفاده أنه تم قبول ترشحه للالتحاق بكلية التربية .

كانت مفاجأة صادمة للوالد، ولكن أحمد حولها بتفسيره إلى أعظم مكافأة يمكن أن يتلقاها والد من ولده.

قبل أن ينفجر منصور غضبًا، ويتخذ قرارًا لا رجعة فيه بالتوجه إلى لجنة التظلمات في التنسيق المركزي؛ لتصحيح الرغبات، والتحويل من كلية التربية إلى إحدى كليات الطب حتى، ولو كانت في بلاد الواق واق، أخبره أحمد والدموع تنسال على وجهه أنه يراه أعظم إنسان في العالم، ولا يرى مثلًا أعلى أعظم، وأقدر منه للسير على خطاه، ومحاولة تكرار الإنجاز الذي حققه.

كانت كلمات أحمد، ودموعه بمثابة الترياق السحري الذي جعل منصور يهدأ، وينشرح فؤاده بما اقترفه أحمد من جرم، بل واعتبر ذلك عمل بطولي من قبل ابنه، وظل بقية حياته يتذكر ذلك الموقف، ويرويه على أنه أعظم ما حدث له.

رغم أن أحمد يحب والده كثيرًا، ويقدره، ورغم دموعه أثناء حديثه إلى والده الحقيقة الخالية من أي شبهة زيف، أو تمثيل، إلا أن سبب الدموع هو الزائف، فدموع أحمد المنسابة كانت بسبب خوفه من تمسك والده بالتحويل من كلية التربية، وإرساله إلى إحدى كليات الطب،

وإبعاده عن سارة التي مازال لا يعلم لماذا لا يستطيع الابتعاد عنها؟ بل ويحاول أن يتقرب منها بشتى الطرق، ولو على حساب مستقبله المهني، وحياته العملية.

****

أعلم أيها القارئ أنك تساءلت مرات عديدة عن سامي. أين هو؟

ولماذا لم آت على ذكره؟

ألم يكن في نفس عمر أحمد؟

ألا يفترض به أن يكون في المشهد مع صديقه يحتفل بنجاحه، أو يحزن لفشله؟

****

إليك جوابي أيها المتسائل:

لم يكن سامي في المشهد لأنه وبعد انتهائه من اجتياز المرحلة الإعدادية اتخذ قرارًا بأنه يريد أن يتعلم حرفة أثناء التحاقه للدراسة في مدرسة بركة السبع الثانوية الصناعية.

نعم اختار سامي الطريق القصير، رغم حصوله على مجموع درجات كبير في الشهادة الإعدادية.

تعلم سامي حرفة الدهانات والنقاشة، وكان من البارعين فيها بنهاية العام الأخير من دراسته الثانوية الصناعية، واحتفل بنجاحه قبل أسبوع واحد من احتفال زميله، ورفيق دربه أحمد بنجاحه في شهادة الثانوية العامة، كان سامي حاضرًا للمشهد مهنئًا، ومتفاخرًا بصديقه العبقري المميز.

وضع سامي مخططات مختلفة لحياته، فالسفر إلى فرنسا، أو إيطاليا، والعمل هناك هو حلم حياته الذي بات قاب قوسين أو أدنى، بعد أن أنهى الدراسة، وأتقن حرفة يستطيع أن يجني من وراءها آلاف اليورو.

التحق أحمد بكلية التربية قسم اللغة الإنجليزية، وسافر سامي إلى فرنسا؛ لتحقيق حلمه في جمع العملات الصعبة التي تحول كل الأمورالصعبة على أرض الوطن إلى سهلة، تاركًا لوالده مهمة رعاية، وحماية سارة ووداد.

الجريمة الخامسة **"كتم شهادة الحق"**

أحمد رغم كونه مازال في الفرقة الأولى هو الذكر الوحيد في شلة بنات الفرقة الثالثة بقيادة سارة تلك المجموعة، التي كانت أشبه بعصابة مخيفة لكل من يحاول الاقتراب من إحداهن، أو محاولة التسبب بأي نوع من الأذى لهن .. مجموعة من الفاتنات المنيعات المحصنات ضد أي غزو ذكوري، أو محاولة رومانسية من أي شاب مهما كانت مؤهلاته من الوسامة، أو الشياكة، أو حتى الذكاء، أو الثراء للانفراد بإحدى جميلات العصابة، وبدء علاقة معها بأي صورة من الصور.

أحمد هو الذكر الوحيد الذي يمتلك تأشيرة مرور، فهو بمثابة الشقيق الأصغر لقائدة المجموعة.

أضف إلى ذلك براءة أحمد من أي نية خبيثة، أو مطامع دنيئة.

إنه يريد فقط أن يظل بجوار سارة، ربما احتاجت له؛ ليحميها إن تعرضت لمكروه، هذا إن جرؤ أحدهم أن يحاول ذلك، وهو شبه مستحيل .. ظهرت نتائج الجامعة، ونجح أحمد بتقدير امتياز، وانتقل إلى ا لفرقة الثانية، ونجحت سارة، وانتقلت إلى الفرقة الرابعة والأخيرة من دراستها الجامعية.

وبحكم أن سارة من أهل الريف، ومن أصحاب الأطيان، بينما معظم صديقاتها من سكان المدن من منوف، وشبين، والباجور، وتلا دعتهم سارة؛ لتناول وجبة غداء شهية مصنوعة بحرفية، ويملؤها حب ست البيت وداد، على أن يلي ذلك حفل شواء لأكواز الذرة البلدي التي لا مثيل لطعمها.

اقتضت مهمة أحمد أن يحضر أكواز الذرة من الحقل، ويشرف على عملية الشواء بنفسه، ويسلم كل حسناء نصيبها مما يقوم بشوائه، لكن الذرة في حقل والد أحمد الذي يستأجره عمه ممدوح لم تكن نضجت كفاية لتصلح للشواء، والوحيد الذي زرع الذرة مبكرًا في تلك المنطقة هو عزمي الصباغ والد سارة.

هنا تكمن المشكلة فعزمي لا يقبل بأي شكل من الأشكال أن تقطع الذرة من حقله بغرض الشواء، وتعلم سارة ذلك جيدًا.

إذًا فالحل الوحيد هو سرقتها دون أن يدري.

كيف ذلك؟ ووالدها يغادر المنزل كل صباح إلى الحقل، ولا يعود إلا بعد أن يصلي المغرب في الزاوية المبنية على ترعة القاصد مقابل حقله.

لذلك توجب على سارة أن ترسم خطة العمل التي سيتبعها أحمد؛ ليحصل على الكمية المطلوبة من أكواز الذرة.

على أحمد أن يتوجه إلى حقلهم الذي يستأجره عمه، ثم يسير مسافة خمسين مترًا، ويعبر متخطيا حقل عمه إلى حقل عزمي الصباغ، وبجوزته جوال.

يقطف أكواز الذرة بالعدد المطلوب، ويضعها في الجوال، ويعود بنفس الطريقة التي ذهب بها.

انطلق أحمد؛ لتنفيذ الخطة بلا تأخير، وأخذ معه كيس بلاستيكي كبير بدلًا من الجوال؛ حتى لا يثير ريبة من يراه، ولحسن الحظ فقد كانت الظهيرة حيث الجميع يحتمي بأسقف، وجدران البيوت من أشعة الشمس، وحرارتها، ولذلك لم يقابل أحمد أي كائن في رحلة ذهابه إلى الحقل.

ركب أحمد دراجته حتى وصل إلى حقلهم.

خمس دقائق فقط هي المدة التي استغرقها أحمد حتى وصل إلى وجهته.

ترك أحمد دراجته على جدار حظيرتهم، واختفى داخل أعماق حقلهم، وسار مسافة كافية، ثم اتجه يمينًا حيث حقل عمه، فعبره؛ ليصل إلى الحقل المنشود الذي به مأربه من ذرة ناضجة بدرجة مناسبة بامتياز للشواء.

بهدوء، وخفة بدأ أحمد في قطع العدد المطلوب من أكواز الذرة.

لكن، قبل أن ينتهي من مهمته المجرَّمة، سمع صوت العم عزمي يتشاجر مع شخص آخر، ويصيح بأعلى صوته:

(ألا تخجل أيها اللص من محاولة سرقة أخيك؟ تأتي إلي بهذا التاجر المشبوه؛ ليشتري بقرتي بثمن بخس، هل اتفقت معه على عمولتك نظير تسهيل مهمته في سلبي عرقي وتعبي؟

اغرب عن وجهي أيها اللعين، غادر أرضي الآن، وخذ معك صديقك الأفاك، واعلم أن اليوم سيكون يوم إقامتك الأخير بمنزلي، الذي تركتك تقطنه؛ كرامة لوالدينا بعد أن أنفقت كل نصيبك مما تركه لك أبي على شهواتك، وملذاتك، ومزاجك، وسهراتك الحمراء التي زينها لك الشيطان.)

اقترب أحمد، وفشل في منع رغبته في التلصص، ومشاهدة المشاجرة عن قرب، زحف أحمد على بطنه بين خطوط الذرة، ودنا في هدوء تام، وأصبح على مسافة كافية؛ ليشاهد تفاصيل ما يحدث بكل دقة.

استمر عزمي في توبيخ أخيه، بينما الشخص المرافق لهما يقف على مقربة منهما، وعينيه تمتلئ بالغضب، والحرج، ويكاد يوشك على المغادرة.

تسمر "سالم الصباغ" مكانه لبرهة، وعزمي يكيل له من الشتائم، والإهانات أشكالًا، وألوانًا، ثم وبلا سابق إنذار استل سالم المنجل الكائن خلف باب الحظيرة، وهجم على عزمي من الخلف، ونحر عنقه بحركة سريعة مفاجئة لم يتوقعها أحمد، أو عزمي، أو تاجر المواشي بحضرتهم، حتى أنا لم أتوقع هذا كرد فعل من سالم؛ انتقامًا لسيل الشتائم المنهال عليه.

بعد نحره عنق أخيه نظر سالم حوله؛ ليبحث عن شهود فلم يجد سوى ذلك التاجر الذي حضر برفقته، وقبل أن يفتح رفيقه فاه طوح سالم ذراعه حاملًا المنجل، وضرب عنق الشاهد الوحيد على ما حدث منذ لحظة.

سقط التاجر صريعًا، ونافورة من الدماء تنطلق من موقع عنقه بعد انفصال رأسه الذي أخذ في التدحرج نحو الحقل حيث يختبئ أحمد.

لم يهدر سالم المزيد من الوقت في البحث عن شهود للتخلص منهم، بل انهمك في فعل أخر.

انكب سالم على تلك الجثة التي فقدت رأسها، ودس يده يفتش في جيوب الجلباب الداخلية؛ ليخرج كيس قماشي بدا من شكله أنه يحوي بداخله آلاف الجنيهات.

انتزعه سالم بقوة، وسرعة من جيب التاجر الصريع، ولكن لتوتره، وخوفه من قدوم أحد اهتزت يده، وسقط الكيس القماشي أرضًا في بركة تجمعت فيها دماء أخيه مع دماء التاجر.

تلوث الكيس بالدماء، إلا أن ذلك لم يمنع سالم عن التقاطه.

بحث سالم عن شيء يخفي فيه كيس النقود، وسلاح الجريمة الذي يحمل بصمات القاتل، ودماء الضحايا .

وجد سالم كيسًا بلاستيكيًا يحوي بعض الخبز الذي جلبه عزمي؛ ليقتات به أثناء النهار قبل عودته؛ ليتناول الوجبة الأساسية فور عودته للمنزل بعد صلاة المغرب.

أفرغ سالم الكيس من محتوياته، ودفس فيه الكيس القماش الذي تخضب بدم القتلى، والمنجل سلاح الجريمة .

توجه سالم إلى جدار الحظيرة الخلفي، وحفر على عجل حفرة ليست بالعميقة، ودفن أدلة جرمه، وردم عليها، وتسلل تاركًا جثة أخيه، ورفيقه تاجر البهائم، بينما مازالت الدماء تتقطر من جثة كليهما.

اختفى سالم عن المشهد تمامًا تاركًا أحمد هناك برفقة الضحايا.

رفع أحمد رأسه، وخرج من مخبأه بهدوء، وتخوف .

لا يعلم أحمد ماذا يفعل، ولكنه كان حريصًا على ألا يترك أي أثر له في مسرح الجريمة.

توجه أحمد إلى البقعة حيث دفن سالم غنيمته، وسلاح الجريمة، ونبش المكان، وأخذ الكيس البلاستيكي بمحتوياته.

عاد أحمد من حيث جاء حاملًا كيسين أحدهما يحمل أكواز الذرة، والأخر يحوي المصيبة التي تعتبر الدليل الوحيد على جريمة سالم الصباغ.

تسلل أحمد عائدًا إلى حقلهم عابرًا حقل عمه، ثم دخل إلى حظيرتهم حيث أبقار عمه مربوطة، تتناول أوراق الذرة التي وضعت لهم كوجبة فطو رفي الصباح.

أفرغ أحمد أكواز الذرة في حوض الطعام (الطوالة) أمام بهائم عمه، ثم وضع الكيس الأخر بكل محتوياته داخل كيس الذرة الفارغ.

اقتدى أحمد بسالم في كيفية إخفاء المصيبة التي بحوزته، فحفر حفرة عميقة بجانب جدار حظيرتهم، ولكن من داخل الحظيرة، وليس خارجها في المكان المخصص لتخزين (التبن) - قش أعواد القمح المجروشة - في موضع بعيدًا عن أرجل الحيوانات، ودفن الكيس داخل الحفرة، وردمها بعناية، وأعاد التبن إلى مكانه فوقها.

مر من الوقت ما يتجاوز الساعة قبل أن ينهى أحمد مهمته الخطيرة، ويقرر العودة إلى منزلهم متسللًا دون أن تراه والدته.

توجه أحمد مباشرة إلى دورة المياه، وخلع كل ملابسه، ونفض عنها بقايا قش القمح بعناية، ثم وضع الملابس في الغسالة التي كانت ممتلئة بالماء، والصابون، وبعض الملابس المنقوعة

بداخلها؛ استعدادًا لغسلها مع باقي الملابس، بعد ذلك استحم أحمد جيدًا بالصابون؛ ليزيل عنه روائح الحقل، والحظيرة.

وبذلك طمس أحمد أي أثر لوجوده في الحقل، أو في حظيرة عمه.

بدل أحمد ملابسه، وذهب إلى منزل سارة؛ ليعرف إن كان علم أحد بأمر الجريمة أم لا.

فوجئ أحمد بسالم الصباغ - الذي يسكن في نفس منزل شقيقه عزمي في شقة صغيرة بمدخل جانبي منفصل عن البيت - يتشاجر مع جاره بسبب المياه التي سكبتها زوجة الجار في الشارع الفاصل بينهما، مدعيًا أنه كان نائمًا، واستيقظ على صوت، ورائحة سكب المياه القذرة، التي أغرقت بها الجارة الشارع، وجزء من جدار شقة سالم.

لم يكن الموقف يستدعي الشجار، ولا تلك الجلبة التي افتعلها سالم، والتي انتهت بالتراضي بعد أن اجتمع كل سكان الحي، والمارة؛ لفض التشابك المحتمل.

استنتج أحمد أن غرض سالم من وراء ذلك الشجار التافه الأسباب أن يؤكد للجميع أنه كان نائمًا، واستيقظ، وتشاجر على مرأى، ومسمع الجميع في نفس الوقت الذي قتل فيه شقيقه، وتاجر المواشي هناك في الحقول.

بعد انتهاء الشجار، والتصالح، والتهدئة بين طرفي الصراع دخل أحمد منزل عزمي الصباغ مع سارة، وزميلاتها اللاتي خرجن؛ لمشاهدة الأحداث الساخنة في الشارع .

اعتذر أحمد عن فشله في المهمة الأساسية التي غادر من أجلها؛ متعللًا بأن عمه أخبره أن حقولهم مغمورة بمياه الري.

الحقول المغمورة لم تمكنه من العبور خلالها إلى حقل عزمي لجلب الغرض المنشود.

استقبل الجمع الخبر باستياء، وكثير من التهكم على أحمد، وكيف أنه فقد قدراته في تنفيذ المهام المستحيلة.

تقبل أحمد تلك السخرية بفتور، وصمت، فعقله كان مشغولًا بشيء أخر .

متى ستعرف سامية بموت زوجها؟

هل سيصدقونه إن أخبرهم أن القاتل هو شقيق الضحية؟

هل ما تحوية الأكياس البلاستيكية من نقود، وسلاح ملوث بدماء الضحايا هو دليل قاطع على إدانة سالم بقتل عزمي، وصديقه التاجر؟

أم أن سالمًا وجد طريقة لإزالة بصماته من عليها قبل أن يدفنها؟

كل تلك التساؤلات قيدت عقل أحمد، وحبست روحه المرحة عن الانطلاق، وسرد القصص المضحكة على مسامع سارة، وصديقاتها .

مر الوقت ببطء شديد، وأعلن المؤذن أنه حان الوقت لصلاة المغرب، وعودة عزمي الصباغ من حقله إلى بيته، حيث جهزت سامية وجبة شهية تليق بالضيوف، وبالزوج المجهد من عمل شاق طيلة اليوم في الحقل.

صُلي المغرب، ووضع الطعام، والكل في انتظار، وترقب دخول الراع، والكفيل .

لم يرجع عزمي من الحقل، فتناول الضيوف وجبتهم، وغادروا مودعين صديقتهم سارة.

انتظرت سامية مجيء زوجها الذي تأخر عن موعد رجوعه كثيرًا.

ربما انشغل في ري الأرض، أو أي مهمة أخرى وجدها ضرورية، ولا تحتاج لتأجيل، فهو الخبير بشئون الزرع، والزراعة.

قلق سامية جعلها تفكر في أن تطلب من أحمد أن يذهب؛ ليتقصى عن سبب تأخر عزمي، ولكن وبحلول وقت العشاء ظهرت سيارة للشرطة، وتوقفت أمام منزل عزمي الصباغ.

بادر سالم باستقبالهم؛ لمعرفة سبب زيارتهم.

بقي سالم في المنطقة، ولم يغادر الشارع، أو يدخل شقته، إلا لفترات لم تكن تتجاوزالخمس عشرة دقيقة، كان يريد أن يثبت لكل المحيطين، والجيران أنه لم يغادر المنزل منذ استيقظ، وتشاجر مع جاره.

بعد أن اقترب رجل الشرطة منه، وهمس بالخبر في أذنه تصنع سالم الانهيار بجدارة.

سالت الدموع على وجهه، بينما ينحني؛ ليستند بكفيه على ركبتيه، وصوت نحيبه جعل الكل يشفق عليه.

بعد لحظات عرفت سامية، وسارة خبر مقتل الزوج الوالد .

أخبرتهم الشرطة أن الجثة محاطة بحراسة أمنية؛ لحين الانتهاء من رفع البصمات، وجمع الأدلة بمعرفة الطب الشرعي.

صرخت سامية، ولولت، ناحت، وبكت، وأبكت كل الحضور.

بينما انزوت سارة في ركن من غرفتها، وقد تورمت عيناها من البكاء .

انطلق سالم يعلنها صارخًا: أنه لن يترك المسألة للشرطة، وسوف يصل إلى قاتل أخيه قبل أن تنال منه الشرطة، وسيجعله عبرة لمن يعتبر.

لازم أحمد الصمت، ولم ينبس ببنت شفة، فقد أتقن سالم الدور جيدًا، وبات من الصعب التشكيك في كونه من المشتبه بهم.

أصبحت التفاصيل برمتها محزوزة، ومشوشة في ذهن أحمد، فلم يعد متأكدًا إن كان سالم حرص على إزالة بصماته من على محتويات الكيس المدفون، أم لا.

فقرر ألا يخاطر بكشف الحقيقة التي يعرفها، والتي لا يوجد شاهد غيره عليها، فربما ورَّطه ذلك في الزج به مشتبهًا به، أو ربما ينجو سالم من التهمة؛ لنقص الأدلة، فينتقم منه بعدها.

آمن أحمد أن سالمًا لن يردعه شيء عن قتله إن تفوه بأي حرف مما شاهده هناك في الحقل في تلك الظهيرة المشؤومة، التي تكررت فيها جريمة قابيل وهابيل مرة أخرى أمام عينيه.

انقضت أيام، أسابيع، وشهور بعد أن دفن عزمي، ودفن معه سر مقتله، وكنية قاتله .

استمرت الحياة كما تستمر بعد كل فقد.

يبقى الجرح في قلوب المحبين، ولكن تمضى عجلة الحياة، ولا تتوقف؛ لتنتحب أيًا كان الفقيد قريبًا، أو بعيدًا، غال، أو بلا قيمة، الكل يذهب، وتبقى الحياة بطبيعتها القاسية.

تلك هي الجريمة الأفظع التي ارتكبها أحمد.

إن سكوته عن شهادة الحق، وصمته كان الجريمة الأفظع في سجل جرائمه، وصحيفة أفعاله.

بعد أقل من مرور عام على مقتل عزمي تبجح سالم، وطلب الزواج من أرملة أخيه مرات عديدة، إلا أنها أصرت على الرفض، رغم كل الضغوط التي مارسها عليها.

أرسل أحمد إلى سامي العديد من الرسائل، يطالبه بالعودة إلى البيت؛ لرعاية أخته، وأمه، وحمايتها من ذلك الذئب القاتل الذي يرتدي ثوب الراعي الحامي، ذاك العم الخائن القاتل الطامع في كل أملاك أخيه بدءًا بأرضه، ومنزله، وأمواله، وانتهاءً بأرملته.

كلما تذكر أحمد تلك الواقعة بالذات، وكيف كان عاجزًا، صامتًا يغضب كثيرًا، ويضرب قبضته بشدة في أي جدار يستند عليه، ويلوم نفسه الجبانة ألف مرة، بل مائة ألف مرة، كيف صمت؟ كيف جبن؟ كيف أعطى الحق لقاتل أن يطالب بما ليس له، ولن يكون له؟

عاهد أحمد نفسه أنه سيقف بين سالم الصباغ، ومطامعه بأي شكل حتى وإن كانت الطريقة الوحيدة لذلك هي كشف المستور، أو حتى قتل سالم نفسه.

"الجريمة الأخيرة"

هل وقع أحمد في غرام سارة الأخت الكبرى لصديقه المقرب؟ وجارته؟ ومعلمته الأولى؟

إن كان ذلك صحيحًا، وتثبته الأدلة، والبراهين على مر الزمن منذ نعومة أظفاره، وحتى تمت خطبتها، فهل تعتبر تلك الفعلة جريمة تضاف إلى سجل جرائمه ؟

وهل إن ثبتت تلك الجريمة بالبراهين، والأدلة، هل كانت جريمة أحمد الأولى أم الأخيرة؟

لم يفطن أحمد طيلة فترة طفولته، ومراهقته أنه وقع في حب سارة، بل عشقها، وأصبحت سعادتها هي هدفه الأول، والأخير في الحياة، وملازمتها في كل وقت هي مأربه المنشود، فمنذ بلغ العاشرة عندما أفسد أحمد المسرحية الثورية، وحول نهايتها إلى نهاية رومانسية يقتل فيها البطل نفسه من أجل سحر عيون حبيبته، منذ تلك اللحظة بدأت الدلائل، والبراهين تثبت لكل متفحص مراقب كم الحب، والعشق الذي يحمله أحمد في طيات قلبه لسارة.

تمر الأيام، ويلقي أحمد بنفسه في اليم؛ ظنًا منه أن حبيبته التي لا تدري حتى أنه يعشقها تغرق.

يسرق لها السجائر من أبيه؛ ليستبدل دموعها بابتسامة، وينال أشد العقاب على فعلته، دون أن يبوح باسم شريكته في الجريمة، ومحرضته عليها .

ثم يتخلى عن كل رغائبه في مستقبل مشرق في كلية من كليات القمة، ويحطم أحلام والده؛ ليبقى بقرب حبيبته في نفس الكلية؛ ونفس القسم الذي تدرس فيه.

لم يهتم أحمد إن كانت سارة تبادله نفس المشاعر أم لا، لم يسأل نفسه عما يجري، ولم يبحث عن تفسير لملاصقته لسارة. إنه فقط يشعر بالسعادة عندما يكون قريبًا منها، وتتضاعف سعادته عندما تكون سارة سعيدة، بينما تصبح سعادته ألف ضعف عندما يكون سبب سعادتها شيء من صنعه، أو قول من كلامه.

أصبحت سارة في عامها الجامعي الأخير بينما أحمد لا يزال حبيس الفرقة الثانية، لا يستطيع أن يفلت بجناحي كيوبيد؛ ليطير محلقًا، ومتخطيًا فارق العمر بينهما .

طرقت الأيادي باب الأرملة؛ طلبًا في الزواج من ابنتها مكتملة الجمال، والكمال كالبدر في منتصف الشهر العربي، الفرق الوحيد بينها، وبين البدر أن جمالها كان دائمًا مستمرًا ليلًا

ونهارًا، بداية الشهر، ومنتصفه، وأخره على عكس البدر الذي يسطع منتصف الشهر ليلًا فقط.

ملت الأرملة من الرفض، وهي تنصاع لرغبة سارة التي لا ترغب أن تضع حياتها التي تقدرها كثيرًا في إطار زواج تقليدي، وزوج عادي يجعلها شبيهة بكل الزوجات حولها.

لم تكن سارة تعرف ما تريد بالتحديد، ولكنها كانت ترفض كل عريس مهما كانت المغريات، وكانت حجتها مقنعة فهي مازالت تدرس، ولا تريد أن يشغلها الارتباط عن التحصيل، والمذاكرة.

كان فرح أحمد الشديد برفضها كل عريس يتقدم لخطبتها بلا مبرر، فهو لم يكن يدرك بعد أنه يعشقها – نعم يا عزيزي القارئ أنا أؤكد لك أن أحمد يعشق سارة - حتى وإن عرف أن مشاعره تجاهها ليست أخوية خالصة فليست لديه أي فرصة للظفر بها كزوجة، وحبيبة.

المتعارف عليه في القرى أن الفتاة تخطب في العام الأخير من دراستها، سواء كانت جامعية، أو أقل من ذلك، بينما ينهى الشاب تعليمه، ويدخر؛ ليؤسس بيتًا للزوجية، وشراء متطلبات

الزيجة من أثاث، ومصوغات، وتكاليف حفل الزفاف، والنثريات الأخرى، فيكون على أقل تقدير قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره إن تلقى المساعدات اللازمة من الوالدين .

وبتلك الحسبة البسيطة واضعين في حساباتنا أن والد أحمد من الأثرياء، وأن منزل الزوجية مجهز مسبقًا، فلن يستطيع أحمد أن يتزوج قبل أن ينهي دراسته، ويتسلم عمله، فيكون قد بلغ الثالثة والعشرين من عمره، بينما تكون سارة قد أتمت الخامسة والعشرين، ولديها من الأطفال إن قدر، ورزقت بهم طفل أو طفلين قبل أن يفكر أحمد في خطوة الزواج.

المستحيل هو زواج أحمد وسارة، كلاهما يعلم ذلك، رغم الرابط الشديد الذي يجمعهما.

بعد رسائل عديدة استجاب سامي لاستغاثات أحمد، وعاد؛ ليدير شئون العائلة عن قرب بدلًا من أن يكتفي بإرسال المصروف الشهري للأخت الكبرى، والوالدة.

عاد سامي، وجاء برفقته شاب وسيم في أوائل العقد الثالث من عمره.

"كرم" لم يكن مجرد صديق لسامي، بل هو أكثر من ذلك.

كرم يمتلك شركة مقاولات صغيرة في ايطاليا، وحلم سامي أن يكون شريكًا له، ولو بنسبة صغيرة في تلك الشركة التي يعمل بها.

جاء كرم بصحبة سامي في رحلة عمل؛ للبحث عن مُوَرّدين لمواد البناء، والتشطيبات بأسعار تنافسية. كرم عاد إلى الوطن؛ ليلتقي جده، وأقاربه، وينتقي من نسله من تصلح أن تشاركه حياته، وتكون زوجة صالحة له.

كون سارة إحدى المرشحات لتكون زوجة لكرم، فقد وعده سامي أن يتحدث معها، ويحاول أن يقنعها بالزواج من ذلك الثري، والسفر سويًا؛ للإقامة، والاستقرار في مدينة ميلانو، ولم شمل الأسرة مرة أخرى.

ظهر الانزعاج على ملامح أحمد كثيرًا فور رؤيته ضيف صديقه، وزاد ضيقه عندما علم أنه سيحل ضيفًا عليهم، ولم يستطع أن يخفي تلك المشاعر، فتحدث مع سارة، وأخبرها أن استضافة غريب غير مقبول كليًا، وسيفتح عليهم القيل، والقال، كما أن ذلك سيتيح للعم سالم مدخلًا جديدًا للإصرار على طلبه الدائم بالزواج من الأرملة الجميلة وداد .

للمرة الأولي خلت جعبة سارة من الحلول السحرية العاجلة للمسائل المعقدة، فماذا يمكن أن تفعل؟ هل تطرد ضيف أخيها، ورب عمله؟ أم هل تخبر أحمد بالغرض الأساسي من استضافة هذا "الكرم"؟

لكن الحل السحري للمشكلة العويصة جاء من سلة أحمد الممتلئة بكل مشاعر الحب، والغيرة، والخوف على محبوبته من ذلك الشاب الغريب، الثرى، الوسيم، الذي ربما يستطيع بكل تلك المؤهلات أن يقنع سارة أن تصير زوجة، وشريكة له.

اقترح أحمد على سارة أن تطلب من سامي، وتصر عليه أن يقيم ضيفهم بصحبة أحمد الجار، والصديق؛ تجنبًا للقيل والقال.

بالفعل لاقت الفكرة استحسان سارة، وتحدثت مع أخيها، ووالدتها التي كانت تشعر بحرج بالغ؛ لوجود ذلك الغريب في منزلهم، وكان ذلك هو الحل الذي أراح كل الأطراف، رغم أنه أشعل نيرانًا شديدة في قلبي كل من أحمد، وسالم. استشاط سالم؛ غضبًا فور علمه بوصول الضيف، وتضاعف ضيقه عندما أخبرته وداد بنية الضيف.

سالم ذكي كفاية ليدرك أن تلك الزيجة ستضع حدًا لأطماعه، وتوقع أنه بعد فترة ليست بالطويلة ستسافر الأسرة كلها إلى إيطاليا بصحبة زوج سارة المستقبلي، وربما يقومون ببيع البيت، والأرض، ويصبح هو بلا مأوى، أو ملاذ.

أما عن أحمد فبعد انتقال كرم للإقامة معه، فقد عرف نيته، وأنه على بعد أيام، أو ربما ساعات من طلب يد سارة، وإتمام مراسم الخطوبة بعد أن وقع ضحية سحر عينيها، وجمال طلتها .

كرم رجل أعمال ولد في إيطاليا من أب مصري هاجر منذ أمد، ورث كرم عن والده مهنة أعمال المقاولات، وبدأ شركته الصغيرة، وهو في بداية العشرينات، ووصل إلى حد مقبول من الشهرة في مجال عمله؛ لإخلاصه، وأمانته، ومهنيته، وبراعة من يستعين بهم من عمال.

كأي تاجر، أو رجل أعمال فإن العقل يكون هو المحرك، والمرجع الأول في اتخاذ القرارات، وعليه فقد أدرك كرم أن سامي بأخلاقه، وأمانته، وحرفيته هو الشريك الأمثل له، والذي يمكنه الاعتماد عليه دون خوف من أن يستغل تلك الأمانة لسرقته، أو للحصول على عمولات دون علمه.

كذلك عرف أن البيت الذي تربى، وترعرع في جنباته سامي يكون هو البيت الأمثل ليختار منه زوجة، يستطيع أن يأمنها على ماله، وعرضه، وأولاده.

لذلك فور رؤيتها قرر كرم أن يتقدم لخطبة سارة، وأن تصبح المرشحة الأولى لتكون حرمه المصون.

كون أحمد يصغر سارة بعامين، فلم يشك كرم ولو لوهلة أن تكون سارة على خريطة اهتمامات أحمد العاطفية، ولذلك ففي الليلة الأولى التي قضاها بصحبته قد صارحه بكل خططه، ونواياه.

بينما كرم يتحدث كانت نار الغيرة تشتد سعيرًا، وحرارة داخل قلب أحمد، لكنه يخفي غيظه، وغضبه، الشيء الوحيد الذي جعل أحمد يهدأ ولو قليلًا أن تلك الزيجة كانت مجرد صفقة مضمونة النجاح بالنسبة لكرم، ربما خلت من الحب، والمشاعر، والأحاسيس، لكنها كانت مدروسة بعناية من ناحية كرم.

استطاع أحمد أن يسيطر على غضبه، وكتم غيظه فهو يعلم جيدًا أن حبه لسارة حب بلا مأرب، وأن نتيجة عشقه لها هو تحطم قلبه إن كان لديه ولو بصيص أمل في الارتباط بها.

تحدث سامي مع سارة بعد أن كشف له كرم عن رغبته الشديدة في الارتباط بها، ولكنها أصرت على ألا تتخذ قرارها إلا بعد نهاية امتحانات أخر العام، التي كانت على وشك بدايتها.

قرر كرم بناءً على ذلك السفر؛ لرؤية أقارب والده، وتمضية بعض الوقت معهم، ورؤية فتيات أخريات مرشحات للزواج به، ريثما تتخذ سارة قرارها، ويعرف ما إن كانت سترضى به زوجًا لها، أم أنه سيبحث عن غيرها.

في اليوم الأخير من الامتحانات، وأثناء فترة الراحة بين الامتحان الأول والثاني، كانت سارة بصحبة أحمد كعادتهما يتجولان بين أشجار البرتقال في حديقة كلية الزراعة أثناء المراجعة للمادة التالية.

جلس كلاهما على مقعد خشبي في إحدى ممرات الحديقة، ونظر أحمد مباشرة في عيني سارة، و سألها : ما أكثر شيء تريدين فعله في حياتك؟

نظرت سارة إلى السماء، واعتقد أحمد أنها أرسلت عقلها؛ ليجوب المجرة؛ بحثًا عن إجابة لسؤاله، ثم بدأت حروفها تتشكل؛ لتخرج من بين شفتيها، دون حتى أن تلتفت إليه، وكأنها ترى ما تريده أمامها، وتصفه لأحمد .

(ما أريده فعلًا في حياتي هو أن أسافر بعيدًا إلى بلاد أوروبية الطقس، وأن أزور نهرًا، أو بحيرة في فصل الشتاء، حيث تكون المياه متجمدة، وأن أخلع حذائي، وجوربي، وأن أمشي على تلك المياه المتجمدة؛ حتى لا أشعر بقدمي من شدة البرودة.

هذا ما أرغبه بشدة، لا أعلم لماذا، أو كيف طرأ ذلك على خاطري؟ لكن ذلك سيشعرني بسعادة استثنائية.)

ضحك أحمد بل قهقه عاليًا، ولمعت عيناه، وقال لها: كنت أعتقد أنك ستخبريني بفارس أحلامك، ومواصفاته، وكيف تتمنين حياتك المستقبلية معه، أما رغبتك الغريبة تلك فلم تخطر لي على بال. نظرت سارة في عيني أحمد وسألته: جاء دورك؛ لتخبرني بأكثر شيء ترغب في القيام به؟

قال أحمد (وهو ينظر إلى عيني سارة الساحرتين): بمنتهى الصراحة أتمنى لو استطعت تقبيل شفتيك.

نظرت له سارة وباغتته قائلة: ما يمنعني أن أحقق حلمي المسافات، والتأشيرات، وأشياء أخرى كثيرة، فقل لى ما يقف بينك، وبين رغبتك الملحة؟

رفع أحمد كفيه، وتلمس وجه سارة برقة، ويده ترتعش ثم اقترب بوجهه من وجهها، وطبع قبلة سريعة على شفتيها.

هم أحمد بالابتعاد، فأمسكت سارة بجانبي رأسه بكلتا يديها، وقربته منها، وأعطته قبلة قوية، وكادت أن تلتهم شفتيه من فرط حرارتها، ثم أبعدته عنها، ولطمته بيدها اليمنى على خده بشدة، وهي تبتسم ابتسامتها الشقية المعهودة المغلفة بالقليل من اللؤم، والمكر.

وهي تقول له: ماذا فعلت أيها السافل منزوع الحياء؟

تركته سارة جالسًا مكانه، لا يكاد يصدق ما حدث توًا، فقد تحقق حلمه، ونال رغبته، ورغم تلك الصفعة على خده الأيسر، إلا أن السعادة التي تملكته جعلته يشعر أنه طار إلى الجنة لثوان، ثم عاد منتشيًا من شدة سعادته بتلك الرحلة السريعة إلى مملكة السعادة.

غادرت سارة بينما أحمد غارقًا في أفكاره، ورحلت، لكنها التفتت، ورمقته بنظرتها، وابتسامتها الشقية المعهودة المغلفة بالقليل من اللؤم، والمكر، المسجلة باسمها مرة أخرى قبل أن تختفي.

تجمد أحمد مكانه، ولم يستطع الحراك لدقائق، فعقله المخمور بالسعادة صور له أنه تحت تأثير نبيذ الحب الذي لا يضاهيه خمر في قدرته على سلب العقول، ومنح السعادة المؤقتة التي تزول بزوال تأثيره، ويتبقى فقط صداع ما بعد الثمالة.

توجه أحمد إلى كلية التربية حيث جلس في مقعده؛ لينهي الاختبار الأخير لعامه الجامعي الثاني تاركًا ليده الممسكة بالقلم مهمة حل الأسئلة؛ لأن عقله كان يجوب بصحبة قلبه في رحلة عبر الزمن الذي توقف عندما التقت شفاهه بشفاه من يحب.

كانت لحظة مثل حلم، حلم استمر في عقله عمر، بل أعمار.

نعم، مجرد حلم، ولم يجرؤ أحمد أن يذكر تلك اللحظة مرة أخرى أمام سارة، أو أي شخص أخر، كان فقط من حين لآخر يسرح بمخيلته، ويتذكر تلك اللحظة التي تمنحه سعادة طاغية، لا يشعر بها إلا سواه.

****

عزيزي القارئ، لقد انتهيت من سرد كل ما اقترفه أحمد منصور من جرائم.

هل تريد مني أن أقفز بك قفزة زمنية حين بدأت حكاية الجثة التي وجدت في الجليد هناك في مدينة جلاسكو، حيث استطاع أحمد الهرب قبل وصول الشرطة؟

أم أن قصة أحمد تمكنت من عقلك، وتعلق بها قلبك، وترغب في كامل تفاصيل ما حدث لأحمد منذ أن تركته سارة هناك في كلية التربية، وحتى تورطه في جريمة قتل جوردن هيل؟

أعلم أن سؤالي هذا استفزك ولو قليلًا، فأنا أشعر بذلك الشغف يملأ داخلك، ويكاد يدفعك؛ لتصرخ بي: أكمل من حيث تركنا أحمد وسارة بالله عليك.

إن كانت تلك رغبتك يا صديقي فلتترك كل أمورك التي يمكن تأجيلها، وابقَ معي، حتى أنتهي من حكاية بطلك أحمد منصور.

****

أنهت سارة اختبارات عامها الجامعي الأخير، وعليها أن تتخذ قرارها بشأن كرم، رجل الأعمال الوسيم، الثري، الذي إضافة إلى السالف ذكره، يتمتع بشخصية ظريفة، وجذابة.

لم تجد سارة ما يمكنها أن تتعلل به، وترفض ذلك العريس "اللقطة" على حد قول وداد، التي كانت تتمنى من كل قلبها أن توافق سارة عليه، وتكتمل تلك الزيجة.

سارة على يقين تام مثل أحمد أنه رغم الحب المتبادل بينهما منذ نعومة أظفارهما، إلا أن ذلك الحب بلا جدوى، وليس له نهاية واقعية، فلن يقبل أي من أفراد عائلتها أن تتزوج سارة بمن يصغرها بعامين، لن يقبل منصور شهاب الدين أن يتزوج ولده الوحيد بمن تكبره مهما كانت الظروف، أحمد وسارة يعيشان في قصة حب رغم كونها الأصدق على الإطلاق لكل منهما، إلا أن أحدًا لن يقبل بنهاية سعيدة لقصتهما، وعليه فقد اتخذت سارة قرارها بقبول كرم كزوج مستقبلي لها.

اتصل سامي تليفونيًا بكرم الذي فرح كثيرًا بقرار سارة، وتحدد موعد حفل الخطوبة في اليوم السابق لرحلة عودة كرم وسامي إلى إيطاليا.

تمت المراسم في إطار عائلي خالص، حيث حضر قراءة الفاتحة من جهة كرم هو بنفسه، وشخصه فقط، ومن ناحية سارة أخيها، ووالدتها، وعمها سالم، وجارهم صديق والدها منصور شهاب الدين، وزوجته سامية القصاص.

إلا أن أحمد عزف عن الحضور دون إبداء أسباب، ولم يكترث أحد لغيابه إلا سارة التي رغم رغبتها في عدم حضوره؛ حتى لا تخرج أمورهما عن السيطرة، وتنقشع الغيوم عن مشاعرهما المتبادلة، ويلاحظ أحدهم ذلك؛ فتفسد الأمور، إلا أنها كانت تشعر أن يومها مبتور، ناقص بغياب حبيبها، وصديقها المقرب.

اتفقت الأطراف أن موعد الزواج سيكون بعد عام من الخطوبة، تكون سارة قد حصلت على شهادة التخرج، وتسلمت عملها في إحدى المدارس، وقضت عامًا دراسيًا، وبهذا يمكنها أن تتحصل على إجازة بدون راتب؛ لمرافقة زوجها في بلاد الفرنجة.

بعد انتهاء مراسم الخطوبة عاد كرم إلى مسقط رأس أبيه على أن يتقابل مع سامي عصر اليوم التالي في مطار القاهرة؛ ليستقلا سويًا الطائرة المتوجهة إلى روما.

توجه سامي إلى منزل صديقه أحمد، وتحدث معه كثيرًا عن كرم، وكيف أن شراكتهما معًا ستغير مستقبله.

تكلم سامي كثيرًا، واستمع أحمد إلى كل كلمة عن ذلك الغريب الذي ظهر فجأة، وسلب منه حب حياته.

وثق سامي في كرم، حيث أنه شخصية واضحة، يعرف ما يريد، ويختار بعقله، وينحي عواطفه؛ لذلك فهو ناجح دائمًا.

شعر سامي بارتياح شديد بعد خطوبة سارة وكرم، حيث أن ذلك سيمكنه من العناية بأخته الوحيدة، ووالدته بعدما ينتقلوا للإقامة معه العام المقبل .

ختم سامي أحاديثه في تلك الليلة بطلبه أن يعده أحمد أن يعتني بسارة، ووداد ذلك العام، وأن يحميها من الطامعين، وخصوصًا عمه سالم، الذي شعر أنه لو كان الأمر بيده لتخلص من ثلاثتهم، واستولى على أرضهم، ومنزلهم.

لم يرحل سامي في تلك الليلة، حتى وعده أحمد أن يحمي أخته، ووالدته من أي شر قدر استطاعته. غادر سامي وهو يعلم مثل أحمد علم اليقين أن الأخير سينفذ وعده، ويحافظ على عهده طالما كان حيًا يرزق.

مرت شهور، ونجح أحمد، وانتقل إلى الفرقة الثالثة، ونجحت سارة، وتخرجت، وتسلمت عملها بمدرسة جنزور الإعدادية.

الكل في انتظار الإجازة الصيفية موعد زواج سارة، وبعدها بأيام، أو أسابيع ستغادر برفقة عائلتها، وزوجها، وتترك أرض الكنانة إلى بلاد الرومان.

بينما سارة تستعد للعرس الذي هو على بعد شهور قليلة، شعرت بشيء غريب يتكون في ثديها الأيمن.

تحدثت مع والدتها التي أخبرتها أن ذلك يمكن أن يكون نتيجة قرب العادة الشهرية، وبانقضاء أيامها سيزول ذلك التحجر، ويرجع جسدها إلى سابق طبيعته، إلا أن ذلك لم يحدث، وفي خلال أسابيع قليلة تكونت كرة من الأنسجة الليفية داخل ثدي سارة. لم يكن ذلك الشيء الغريب مؤلم، أو له أي أعراض أخرى، إلا أنها انزعجت كثيرًا، وقررت أن تستشير جراحًا متخصصًا.

علم سامى بمجريات الأمور عند اتصاله تليفونيًا، وأخبر كرم على الفور بأنه يريد إجازة؛ لأن سارة تعاني من خطب ما، ويريد أن يسبقه؛ ليتأكد أنها ستكون بخير قبل موعد الزفاف.

عاد سامي إلى مصر، واصطحب أخته إلى أكبر جراحي مدينة طنطا، الذي طلب بعض الأشعة والتحاليل، وانتهى بضرورة إزالة هذا الجسم الذي شخصه أنه تورم ليفي، ينصح

بإزالته، وربما ستحتاج سارة بعدها لعملية تجميل؛ لإعادة ثديها المتضرر إلى حالته، وحجمه الطبيعي.

بعد استشارة كرم دون علم سارة، أو وداد، وافق سامي، وتحدد يوم للجراحة في مستشفى المنشاوي الشهيرة بمدينة طنطا.

لم يكن أحمد على علم بتلك المستجدات؛ نظرًا لكونها حساسة، وظن أن سارة تتعمد إبعاده عنها، حتى لا يكون الفراق صعب على كليهما، فآثرهو الآخر الابتعاد، وسافر مع أقرانه للعمل في أحد فنادق شرم الشيخ خلال الإجازة الصيفية. فوجئت سارة بوصول كرم إلى مقر المستشفى يوم إجراء الجراحة التي لم تستغرق سوي نصف ساعة.

أوصى الطبيب بتحليل الورم؛ للتأكد أنه ورم حميد.

أصر كرم على القيام بتلك المهمة بنفسه، وأخذ الورم، وسافر به إلى القاهرة، وتحديدًا ميدان رمسيس، حيث معمل تحاليل د/ إيليا أنيس إسحاق أشهر، وأكفأ، وأدق معمل يقوم بتحليل تلك الأورام.

عاد كرم إلى منزل جده، بينما اصطحب سامي سارة بعد أنهت الجراحة، وعادوا؛ لترتاح في منزلها، وقد اتفق الجميع على عدم ذكر أي شيء يخص تلك الجراحة لأيٍ من كان من الأقارب، أو الجيران، حتى سامية حبيبة وداد لم تعرف أي شيء عن ذلك الأمر.

لم يكن أحد يهتم بنتيجة تحليل الورم المستأصل من ثدي سارة، فالطبيب الجراح أكد لهم أن الفحص الأولي، والشكل العام للورم، يؤكد بنسبة كبيرة أنه من النوع الحميد، وعدم ظهور أي أعراض جانبية على سارة، يؤيد رأي الطبيب.

شخص واحد فقط هو الذي انشغل بانتظار نتيجة تحليل الورم، إنه كرم الذي اعتذر أكثر من مرة عن الحضور؛ لتناول الغداء في منزل سامي، ووعده بالحضور الأسبوع القادم؛ لانشغاله ببعض الأعمال الخاصة بأمور العائلة كلفه بها جده.

لم يكن ذلك هو السبب الحقيقي، ولكن كرم كان ينتظر نتيجة معمل التحاليل على أحر من الجمر .. توجه كرم إلى رمسيس صبيحة اليوم السابع للجراحة، حين موعد تسلم نتيجة التحاليل. تسلم كرم النتيجة في مظروف مغلق، وتوجه مباشرة إلى عيادة الطبيب الذي أجرى الجراحة.

فتح الطبيب المظروف، وقرأ نتيجة التحليل، وتغيرت ملامحه، وأخبر كرم أنه يأسف بأن يخبره أن الورم المستأصل ليس حميدًا كما اعتقد، وإنما هو ورم خبيث من الدرجة الثالثة، وأن المريضة رغم عدم ملاحظة أي أعراض ظاهرية عليها، إلا أنها إن لم تبدأ العلاج فورًا فستتدهور حالتها، وتسوء، وربما ينتهي الأمر بكارثة.

عقد كرم نيته، وعرف قراره منذ أن تغيرت ملامح الطبيب برؤية الأوراق الطبيبة التي ناولها له.

رغم أنه طيب، ومسالم، إلا إنه رجل أعمال، وتاجر، ويحسب كل خطوات حياته بعقله، وينحي قلبه .

نفس المنطق الذي جعله يقتنع أن سارة زوجة مثالية له، هو الذي جعله يصرف النظر عن تلك الزيجة، فرجل أعمال يبحث عن مزيد من الثراء، والنجاح لن يربط حياته بمريضة سرطان في مرحلته الثالثة.

اتصل كرم بسامي، وأخبره أنه ينتظره في أحد مقاهي شارع البحر بمدينة طنطا، ويريد التحدث معه بخصوص أمر طارئ، ومُلِح.

تخوف سامي من حدوث شيء يعرقل شراكته بكرم جعله يرتدي ملابسه في أقل من خمس دقائق، ويستقل سيارة متجه إلى طنطا، ثم تاكسي إلى مقر المقهى، حيث ينتظره كرم.

توجه سامي بقلق شديد إلى كرم، وجلس متسائلا عن سبب ذلك الاجتماع الطارئ.

بدأ كرم حديثه بالأعمال المشتركة، والمستقبل، وشراكتهم التي لا يمكن أن تتأثر بأي شيء، ذلك طمأن سامي كثيرًا، بعدها تطرق كرم إلى سارة، وناول سامي المظروف، وأخبره أن سارة مريضة سرطان، وأن الأعراض ربما تكون على وشك الظهور، وبضراوة، وعليهم أن يخضعوها للعلاج اللازم؛ حتى لا يتوحش المرض، وتحدث الكارثة.

كانت ضمائر المتكلم، والمخاطب كفيلة بأن يستنتج سامي عزوف كرم عن الزواج بأخته، وتبدل رأيه بعدما علم بمرضها.

كانت صدمة سامي شديدة حين علم بمرض أخته، ولكنه تعلم من كرم الذي أصبح بمثابة مثله الأعلى أن يكون عمليًا في تصرفاته، وأفعاله، وعليه فقد اتفق الطرفان على فسخ الخطبة، وليس الشراكة.

قرر كرم السفر في أقرب وقت؛ لمتابعة أعمال الشركة، ومنح سامي إجازة مفتوحة مدفوعة الأجر بحد أقصى ستة أشهر؛ لتصريف أموره، وعرض شقيقته على أطباء الأمراض السرطانية، ووضعها ضمن برنامج علاج مناسب لحالتها.

كان ذلك منصف بدرجة كافية لكل من سامي وكرم، الذي اختفى فجأة، وكليًا من حياة سارة، مثلما كان ظهوره مفاجئ.

عاد سامي للمنزل حيث سارة طريحة الفراش، ووداد بجوارها، وبحوزته الأوراق الطبية الخاصة بسارة، والتي تشير إلى إصابتها بالسرطان.

بدون أي مقدمات، أو تمهيد أخبرهم سامي بما حدث .

وأن كرم قرر السفر، وفسخ الخطوبة؛ لأن سارة مصابة بالسرطان، وحالتها على وشك أن تصير خطيرة.

لم تستطع وداد تحمل ذلك الخبر، فسقطت مغشيًا عليها، حاول سامي إفاقتها، وساعدته في ذلك سارة رغم حالتها، إلا أنهما فشلا في إعادة الوالدة لوعيها.

أسرع سامي مهرولًا إلى أقرب صيدلية؛ لطلب المساعدة من الصيدلي الموجود بها، بينما حاولت سارة الاتصال بأحد أطباء القرية؛ لطلب المعونة.

وصل سامي برفقة طبيب قام بفحص الوالدة، وأخبرهم أنها فارقت الحياة، ولا يعلم إن كان السبب أزمة قلبية، أو جلطة في المخ.

الخبر المؤكد أنها فارقت الحياة، وأصبحت روحها رفقة روح أبيهم عند بارئها.

لم تقتنع سارة برأي ذاك الطبيب، وانتظرت وصول الطبيب الذي اتصلت به؛ ليساعدها في نقل والدتها إلى المستشفى العام، أو المستشفى الجامعي بشبين الكوم، إلا أن الطبيب الأخر فور وصوله أكد ما قاله الطبيب الأول، وأن وداد فارقت الحياة، وأن السبب هو أزمة قلبية حادة .

وجد سامي نفسه في موقف لا يحسد عليه، فقد توفيت أمه، وتركت له شقيقته المريضة بالسرطان؛ ليعتني بها، وعليه أن يدفن والدته، ويعالج أخته في غضون ستة أشهر هي الحد الأقصى لإجازته المدفوعة، وإن تخطى تلك المدة ربما سيفقد عمله، وشراكته مع كرم.

ماذا سيفعل، وبمن سيستعين؟

بعد مغادرة الطبيبين، وقبل أن يخرج سامي؛ ليعلن خبر وفاة والدته، وموعد صلاة الجنازة، ودفن الجثمان، أخبرته سارة أن يبقى خبر إصابتها بالسرطان طي الكتمان، وأنه إن علم أحد بذلك فستتبرأ منه، وتنبذه طيلة حياتها.

وعدها سامي بكتمان الخبر حتى تعلنه هي؛ على أن تبدأ في إجراءات العلاج فور الانتهاء من مراسم الجنازة، واتفق الشقيقان على ما كان وتم الأمر.

لم يكن الأمر بالهين، أو اليسير على سامي، أو سارة، فلم يسبق لأي منهما أن أدار أمور وفاة أحد الأقارب، فكان لازمًا على سامي أن يستعين بجيرانه أصدقاء أسرتهم المقربين سامية القصاص، ومنصور شهاب الدين.

حزنت سامية كثيرًا؛ لوفاة صديقتها وداد، ولكنها تؤمن بأن لكل أجل كتاب.

أنهت سامية ترتيبات الغسل، وجهزت بمعاونة أخريات الجثمان؛ لصلاة الجنازة التي أعلن عن موعدها منصور خلال مكبرات الصوت في جوامع القرية المختلفة.

اتصل سامي بصديقه أحمد الذي حضر على الفور، وشارك سامي في الترتيبات، والتجهيزات اللازمة لإتمام مراسم الدفن، وتلقى واجب العزاء.

لم يكن أحمد مجرد معاون، بل كان المنظم، والمدير، والميسر لكل الترتيبات، حيث كان عقل سامي منشغلًا بمعضلاته الأخريات.

لم يسأل أحمد عن سارة، ولا أحوالها، لأنه لم يكن قد عرف بعد أنها انفصلت عن كرم، أو لتحري الدقة أن كرم قد تركها.

لم تكن هناك فرصة للحديث عن سارة، أو الجراحة التي أجرتها منذ أقل من أسبوع، فالصمت كان سيد الموقف في ذلك اليوم .

انتهت المراسم، وشيعت الجنازة، وتلقت الأسرة واجب العزاء، وانقضى اليوم، وجزء ليس بالقليل من الليل، وعاد كل إلى منزله.

بدأت سامية تتحدث مع منصور عما حدث، وعن حالة سارة بعد فقدان أهم شخص في حياتها.

لم يستطع أحمد أن يمنع نفسه من التلصص، ولا أذنيه من الانصات، ولا عقله من استيعاب كلمات والدته وهي تخبر والده بتفاصيل الوفاة، وكيف أصيبت وداد بذبحة قلبية فور أن أبلغها سامي بقرار كرم في الانسحاب من حياة سارة؛ لأنه أجل فكرة الزواج إلى أجل غير مسمي.

هنا تيقظت كل حواس أحمد، وزاد الأدرينالين في دمه زيادة مفاجئة، وانتفض من مكانه متجهًا صوب منزل سامي.

طرق أحمد باب جيرانه طرقًا خفيفًا؛ خوفًا من ايقاظهم إن كانوا قد خلدوا للنوم، لكنه لم يضطر لتكرار ذلك النقر، لأنه سمع وقع أقدام قبل أن ينفتح الباب، ويظهر سامي أمامه.

اندفع أحمد مقتحمًا جنبات المنزل، متجهًا صوب أريكة غرفة المعيشة في المكان الذي اعتاد أن يجلس، فيه قبل أن يعزف عن زياراته لمنزل صديقه.

نظر أحمد إلى سامي، وسأله عن خططه المستقبلية.

تلعثم سامي، واختلطت حروفه بنحيبه، ودموعه: لا أعلم ما هي خطوتي التالية، لدي ستة أشهر لأقرر إن كنت سأسافر مرة ثانية للعمل مع كرم، أم سأراسله ليصفي الشراكة، ويرسل لي نصيبي، وأبقى هنا أرعى أختي المريضة.

قاطعه أحمد عند سماعه عبارة أختي المريضة، وسأله في قلق وخوف: من المريضة؟

أتقصد أن سارة مريضة؟

متى مرضت؟

ولماذا لم تخبر والدتي بشأن مرضها؟

تعثرت الكلمات على شفاه سامي مرة أخرى، وهو يحاول أن يوقف سيل التساؤلات الذي فجره أحمد.

(عانت سارة من أعراض الزائدة الدودية، والحمد لله أجرت جراحة الأسبوع الماضي، ولم ترغب سارة أن تثير القلق فطلبت من الجميع كتمان الأمر، أنت أدرى بسارة وطباعها.)

قالها سامي، وهو يكاد ينطق بحقيقة الأمر؛ لولا القسم الذي وعد سارة بألا يحنث به.

نهض أحمد تاركًا سامي، وطرق باب غرفة سارة، واستأذنها في الدخول .

سمحت له سارة، ففتح الباب، وتوجه صوب الكرسي المجاور لسريرها.

واساها أحمد على موت والدتها، ثم سألها عن حالها، وكيف تشعر.

لم تكن كلمات سارة بالكثيرة، فلغة العيون بينهما كانت كفيلة بتحقيق التواصل، والاطمئنان على أحدهما الأخر.

انضم سامي لهما، وتحدثا عما سيتم خلال الأيام المقبلة من إجراءات تقبل واجب العزاء، وانهاء اجراءات الميراث، وخلافه.

اقترح سامي بيع الحقل حيث أن كلاهما لن يستطيع رعايته، وأنهما الآن في حاجة إلى ثمنه في حال لم يعاود سامي السفر مرة أخرى.

تدخل أحمد مقترحًا أن يتم البيع لعمه ممدوح، فهو شخص محترم، ولن يبخسهما حقهما، كما أن جيرته لحقلهم ستكون شفيعة له في الشراء، وأضاف أحمد سبب آخر لأن يكون ممدوح شهاب الدين هو الشاري المقترح.

إن سالم الصباغ يخشاه كثيرًا، ويعمل له ألف حساب؛ فلن يستطيع سالم أن يتدخل، أو يرهبه ليمنع عمليه البيع، ويظل واضعًا يده على الحقل، ومسيطرًا عليه كما يفعل منذ مقتل والدهم.

نال الاقتراح القبول، وأضافت سارة أن يبقى كل ما تحدثوا بشأنه سرًا؛ من باب الحذر، والحيطة .

انتهت الأحاديث عن الأمور الملحة، وأوشك الفجر على البزوغ، ونهض أحمد؛ استعدادًا للانصراف.

لكنه فاجأ الجميع بسؤال، أعقبه بإجابة، دون انتظار رد أي من مستمعيه، كانت عباراته مثيرة للجدل على كل الأصعدة.

ممسكا بمقبض الباب التفت أحمد ناحية سامي وسارة، وسأل سامي:

كيف سترعى سارة إن سافرت، وتركتها في كنف عمك سالم الذي لن يتوانى عن الفتك بك وبها؛ ليحصل على المنزل فور أن يعلم ببيع الحقل؟

أعتقد أني وجدت حلًا مثاليًا لكل تلك المسائل، ربما يكون الوقت، والظروف غير مهيئة لذلك، ولكن فلتسمعا.

أنا أريد أن أتزوج سارة، ولتكن مراسم الخطوبة بسيطة، وعائلية بعد مرور أربعين يومًا؛ احترامًا لروح الفقيدة، لو وافقت سارة، سيكون بوسعي منحها الحماية، والرعاية، حتى تشفى، وتعود لعملها، وفور تخرجي العام القادم تتم مراسم الزواج، والزفاف.

بالنسبة لسامي كان هذا هو الحل السحري الذي لم يخطر على باله قط.

في تلك اللحظة أعتقد أن سامي استحضر كل الأعمال الصالحة التي فعلها طيلة حياته وصلى ألف صلاة ودعا ربه بكل أسمائه لتقبل سارة طلب أحمد وتنتقل مهمة رعايتها من كنفه إلى كنف زوجها المستقبلي ويستطيع هو السفر دون قلق حيالها.

أما سارة فقد نظرت في عيني أحمد وسألته مباشرة: هل تحبني ؟

لم تنتظر إجابته، وأكملت حديثها:

إن كنت تفعل، وأنا على يقين من ذلك؛ فلدي أكثر من شرط لأقبل بأن يصير شخص أصغر مني زوجًا لي، حتى وإن كان يسكن قلبي منذ عصور.

وأنا أوافق على كل شروطك، وإن بلغت من الصعوبة، والغرابة ما يفوق التحقيق.

قالها أحمد، وقد امتلأ قلبه بالأمل في استعادة حبيبته مرة أخرى، ولكن تلك المرة ستعود إليه، وتبقى برفقته حتى يفرقهما الموت، ثم يجتمعا مرة ثانية في جنة الخلد، إن قدر أنهما سويا من أصحاب النعيم.

بدأت سارة في تلاوة شروطها على مسمع، ومرأى كلًا من أحمد وسامي:

أولًا/ يأتي عمي منصور بنفسه لخطبتي، وتبارك الخطوبة خالتي سامية، وإن وجدت غضاضة في أعين أيٍ منهما، أو ضيق فلن أقبل.

ثانيًا/ أنفرد بالحديث مع عمي منصور، ويوافق على كل التفاصيل، والترتيبات التي أرغبها، حيث سيكون هو بمثابة وكيلي، والمتحدث باسمي، إن قدر وتمت الخطوبة، ومن ثم الزيجة.

ثالثًا/ أن تعدني أنه حال توفي أحدنا فلن يعيش الآخر على الذكرى، بل سيبحث عن حب جديد، ويبدأ حياته مرة ثانية دون الشعور بأي ذنب، أو حرج، أو إحساس بالخيانة .

تلك شروطي، إن كنت تقبلها، فلتذهب لتتوضأ، وتحضر ذاك المصحف، وتضع يدك عليه، وتقسم أنك ستنفذ كل شروطي بلا حنث، أو مخالفة.

أنهت سارة حديثها، وانطلق أحمد فتوضأ، وأحضر المصف، ووضع يمناه فوقه، وأقسم بالله أنه سينفذ كل شروطها، وسيحافظ على ذلك القسم طيلة حياته.

غلبت مشاعر السعادة بتغير مقاليد الأمور تلك على مشاعر الحزن لوفاة الخالة وداد، وغادر أحمد منزل الجيران، وهو يكاد يطير من فرط سروره.

انطلق أحمد نحو منزله، ولكن الوقت كان قد حان لرفع آذان الفجر، وانطلقت المآذن تعلن عن ذلك في مباراة بين المؤذنين من أصحاب الحناجر الذهبية.

توجه أحمد إلى المسجد البحري حيث يصلي والده الفجر، وبعد أن انتهى المصلون من أداء الفريضة، رافق أحمد والده عائدين إلى منزلهم.

بدأ أحمد خلال طريق العودة حديثه، بأنه على مشارف بداية عامه الجامعي الأخير، وأنه فور انهائه بتفوق كالمعتاد، سيتسلم وظيفته كمدرس للغة الإنجليزية، ثم تطرق إلى كون حصول الشاب على فتاة ذات أصل، وجمال، وتربية أصبح نادر، وعلى أحدهم أن يقوم بالمطلوب إن وجد مراده.

فطن منصور إلى مأرب أحمد، وغضب قليلًا لأن ظروف وفاة وداد التي هي بمثابة والدة لأحمد لم تجعله يؤخر، أو يؤجل الحديث عن أمر الحب، والزواج.

رغم ضيقه، أراد منصور أن يعرف من تلك الفتاة التي جعلت ولده ينسى أحزانه، ويفكر في خطوة هي على بعد عام من زمنه الحالي، ويريد اختصار كل ذلك الوقت محبةً فيها، وتمسكًا بها.

سأله منصور:

- ومن سعيدة الحظ التي سكنت قلبك يا تعيس؟
- سارة.
- سارة. أي سارة؟ من قريتنا، أم أنها زميلة لك في الجامعة؟
- يا أبي.. إنها سارة عزمي الصباغ، جارتنا، وكريمة صديقك المقرب.

دمعت عينا منصور، ولمعت فرحًا، وهو يشكر الله الذي استجاب لدعواته.

نعم منصور كان يدعو ربه أن يؤلف بين قلب نجله وقلب سارة؛ ليتثنى له رد جميل جارته وداد التي اعتنت بأحمد طيلة حياته، وحتى وافتها المنية .

لم تكن دعوات منصور سرية بينه وبين ربه، بل طلب أكثر من مرة من سامية أن تلفت نظر أحمد إلى سارة، وجمالها، وعفتها، وتربيتها، وأن فارق العمر بينهما لا شيء مقارنة بكل مزايا سارة الأخرى.

****

وعليه عزيزي القارئ فإن زواج أحمد من سارة لم يكن رغبة فردية من جانب أحمد، بل لقد وقعت عائلة منصور شهاب الدين بكاملها في حب سارة، كل يحبها بطريقته المختلفة، سامية تراها ابنتها التي لم ترزق بها، ومنصور يعتبرها الأمينة المصونة التي يعلم جيدًا أنها ستكون الزوجة الصالحة لولده، والوالدة الرائعة لأحفاده.

أصبحت مسألة زواج أحمد من سارة شبه منتهية، عليهم فقط التحدث معها، والانصياع لشروطها التي تلاها أحمد على مسامع والديه، ورحبوا بها، بل وفرحوا كثيرا.

****

لا تنسى عزيزي القارئ أن سارة مصابة بالسرطان في درجته الثالثة، وحالتها على بعد خطوات من أن تتدهور، وتصير خطيرة، وربما يكون مآلها الموت؛ لتلحق بوالديها، ورغم ذلك لم تأت على ذكر مرضها أمام أحمد .

هل تعتقد أنها ستخدعه، وتتركه يتورط في مسألة الزواج قبل أن يعلم، وبذلك تعطي الحرية لأخيها؛ ليشق طريقه، وينطلق نحو مستقبله على حساب أحمد الذي سيصبح مكبلًا بها، وبظروف مرضها، وربما تتحول حياته جحيمًا ممتلئًا بالآلام، ورحلات العلاج إلى شتى بقاع وزارة الصحة، وملحقاتها؛ بحثًا عن علاج لها.

فلتنصت لي عزيزي القارئ لعلنا ظلمنا سارة قليلًا بتلك التهم، وسأقص عليك تفاصيل ما حدث.

****

من فرط فرحته لم ينتظر منصور، وتوجه بصحبة سامية صوب منزل سارة ظهيرة اليوم التالي، وتحدثا معها بشأن زواجها من أحمد، وكيف سيكون ذلك بمثابة تحقق لأمنية كانا يظنان أنها مستحيلة.

بالطبع فرحت سارة كثيرًا بحديثهما، ووافقت على طلبهما، لكنها أرادت الانفراد بمنصور؛ لتتحدث معه في التفاصيل، والترتيبات، ومواعيد الإعلان عن خطوات الارتباط، وكيفية ذلك.

انصرفت سامية احترامًا لرغبة سارة، وطاعةً لنظرة رمقها بها منصور مفادها فلتستأذني بالانصراف يا زوجتي المصونة.

تحدثت سارة بمنتهى الشفافية مع منصور، ووضحت كل تفاصيل مرضها، وأنها لولا تأكدها من حبهم لها، وثقتها بهم ما كانت لتسمح لنفسها بقبول طلب أحمد، وهي تعلم ما قد يكون في انتظارها.

أخبرته سارة بما جعلت أحمد يقسم على تنفيذه إن توفت، وأوضحت أنها صممت على جعله يفعل ذلك؛ حرصًا منها على ألا تتوقف حياته إن قدر وأنهى ذلك المرض العضال على حياتها.

فجعلته يقسم ألا يعيش على الذكرى، وأن يستمر في حياته باحثًا عن شريكة تشاطره الحياة، وتبادله الحب.

أنصت منصور بعقلانية لكلمات سارة التي جاءت مباشرة دون لف أو دوران، ربما تسللت بعض قطرات دموعه خلسة دون رقابة، أو تحكم منه عندما ذكرت موتها.

لكنه اقتنع بما قالت، وزاده ذلك تصميمًا على اتمام هذه الخطوة المهمة.

أنهت سارة حديثها بأن ما أتت على ذكره كله احتمالات واردة، وأن منصور عليه أن يكلم أحمد، ويخبره بكل تلك الاحتمالات، وأن يبدأ بأسوأها، ويعرف منه إن كان لا يزال يريد الزواج منها، أم لا؟ وألا يضغط عليه؛ لأنها تريد إن حدث الزواج أن يكون بدافع الحب لا الشفقة.

انصرف منصور بعد أن جفف دموعه، وكان هناك في انتظاره بالمنزل أحمد على أحر من الجمر؛ ليعلم تفاصيل ما دار، ومتى؟ وكيف سيتم إعلان الخطوبة؟

استغرق منصور في حديثه دقائق قليلة تجرد فيها من كل المشاعر، وأوصل رسالة سارة بكل حيادية، دون أن يظهر موقفه الشخصي، ورغبته الشديدة في أن يصر أحمد على الزواج منها، بعد أن يعرف حقيقة مرضها.

بالفعل لم تكن لتلك المعلومة أي أثر على موقف أحمد، ولم تقلل من رغبته في الزواج من سارة، بل زاد حبه لها، وتعلقه بها.

مر شهرين وزيادة، وأوشك العام الدراسي على البدء، فاجتمع منصور بكل الأطراف: سامية وسارة وسامي وأحمد، أخبرهم أنه ارتأى أن يعقد قران أحمد وسارة، وتنتقل للمعيشة في شقته التي تم تجهيزها بكل شيء خلال تلك الفترة، وذلك حتى يتثنى لسامي أن يسافر دون قلق، أو حيرة بشأن سارة، كما أن ذلك سيغلق أي مجال للحديث حول شرعية اختلاط أحمد وأسرته بسارة في غياب أخيها، وسيضع حدًا لأطماع سالم الذي استشاط غضبًا بعد أن طلب منه ممدوح شهاب الدين شقيق منصور رفع يده عن حقل اخيه عزمي، بعد أن اشتراه من سامي وسارة.

تحول سالم بعد هذا الخبر إلى ذئب جريح، ينتظر أي فرصة ليثأر ممن نال منه، لكن بتلك الطريقة لن يجد من سبيل لذلك، وسيكتفي بأن يكتم غيظه، ويسكن داره، ويبحث عن عمل يقتات منه في سلام، بدلًا من افتعال مشكلة، ربما تجعل سارة تقنع أخاها ببيع المنزل الذي يقطنه سالم مجانًا بلا أي حق.

اقتنع الجمع بالفكرة، وعقد القران بحضور سالم الذي آثر السلامة كما توقع منصور.

لم يكن هناك أي حفل أو احتفال، كان مجرد اجتماع حضره مأذون القرية، وأقرب الأقارب، والجيران؛ لحضور عقد القران، وإشهار الزواج.

شفيت سارة تمامًا من الجراحة التي خضعت لها قبل موت والدتها بأسبوع، لكن تلك الجراحة تركت ندبة على ثديها الذي تأثر قليلًا بالجراحة.

عدم ظهور أي أعراض لما ذكره الجراح، بعد رؤيته لنتيجة تحليل الورم الذي استأصله من ثدي سارة، وانشغالها بموت والدتها، والتحضير بعد ذلك لزواجها، جعلها تنسى أمر ذلك المرض، وظنت أن ما تفوه به كرم كان مجرد حجة واهية؛ للتخلص منها، وأن المظروف الذي ناوله لسامي يوم وفاة والدتها ما كان إلا خدعة؛ ليقنع شقيقها بأنه محق في التخلى عنها، وعن الارتباط بها.

مع بدء الدراسة كانت الاستاذة سارة الصباغ قد أصبحت زوجة أحمد شهاب الدين الطالب بالفرقة الرابعة بكلية التربية جامعة المنوفية.

امتلأت الأيام بالسعادة، والسرور، ليالي من ألف ليلة وليلة عاشها العاشقان، لم تكن كل الأيام مثالية، فبعض المناوشات تجعل الحياة لذيذة، كالتوابل الحارة تعطي الطعام نكهة، وطعم.

أصرت سامية من اليوم الأول للزواج أن تكون حياة أحمد وسارة مستقلة في شقتهما بالدور الثاني في منزل منصور؛ حرصًا منها على عدم التدخل في شؤون الزوجين، لأنها تعلم جيدًا أن الخصوصية، والحفاظ على أسرار الأسرة من أهم أسباب نجاح الزواج، واستمراره، ولكنها أبقت باب شقتها مفتوح طيلة الوقت لولدها، وزوجته الجميلة؛ إن أرادا الانضمام إليها في أي وقت، أو مشاركتها هي ومنصور أي وجبة.

ساعد ذلك على إبقاء علاقة سارة وسامية صحية، ومهذبة، وخالية من أي ضغائن، أو منغصات.

أنهى أحمد عامه الأخير بتفوق كالعادة، وتسلم شهادة تخرجه، وعمل بوظيفته في نفس المدرسة التي تعمل بها سارة - مدرسة جنزور الإعدادية - فصار الزوج زميل لها في العمل، ورفيق لها في المنزل، واكتمل التصاق أحمد بحبيبته كما كان يأمل ويتمنى.

ظل التواصل الأسبوعي بين سامي وسارة وأحمد مستمر، ونسي الجميع أمر المرض الذي مر على اكتشافه حوالي العامين.

لم تشغل سارة بالها بذلك، ولكن ما شغلها كان شيء أخر، فهي تريد أن تنجب لأحمد من يحمل اسمه، ولقب شهاب الدين، لكن عامان من الزواج بلا حمل أرهقا عقلها كثيرًا.

تحدثت سارة مع أحمد في تلك المسألة، وأنها انتظرت فترة كافية قبل أن تقرر أنهما بحاجة لاستشارة طبيب مختص.

لم يكن أحمد مشجعًا لتلك الفكرة على الإطلاق، وكان رده الدائم أن الأطفال رزق من الله، يرزق من يشاء الذكور، ويرزق من يشاء الإناث، ويجعل من يشاء عقيما، وأن ذلك كله بقدر معلوم، ووقت محسوم لا يعلمه إلا الله، وأن محاولة استشارة طبيب من وجهة نظره ما هي إلا محاولة للتحايل على قدر الله، ومشيئته مثلما فعل أصحاب السبت.

لم تقتنع سارة بأي حرف مما تفوه به أحمد، وظنت أنه استشار طبيب، وأن لديه مشكلة في الإنجاب، لذلك حرصت على ألا تلح عليه، وعوضًا عن ذلك طلبت منه أن يقنع حماتها

سامية، وعمها منصور بكلامه بنفس الطريقة التي أقنعها بها، وأخبرها أحمد ألا تحمل همًا، وأنه فعل ذلك قبلًا.

كذب أحمد بشأن استشارة الطبيب، لأنه وبعد مرور شهرين فقط على زواجهما، وتأخر الحمل زار عيادة الدكتور/محمود البنهاوى أخصائي أمراض الذكورة وتأخر الإنجاب، وقام بعمل الفحوصات، والتحاليل الطبية المطلوبة، وتأكد أنه لا يعيقه شيء عن الإنجاب، وأن صحته الذكورية لاغبار عليها، وكرر تلك التحاليل، والفحوص مرات عديدة على مدار ما يزيد عن العام؛ ليتأكد من خلوه من أي سبب يعيق الانجاب.

عندما تأكد أحمد من أنه بريء من مسألة تأخر الانجاب، وأن السبب وراء ذلك يمكن أن يعود لعطب تعاني منه سارة، أصر على موقفه من عدم استشارة طبيب؛ حتى لا يضعها في موقف لا تحسد عليه، أو يجعلها تشعر بالتقصير تجاهه.

كما أنه أخبر والدته أنه يعاني من خطب بسيط يؤخر قدرته على الانجاب، ولم يصارح سارة بذلك؛ لأنه مازال يخضع للعلاج من جراء تلك المشكلة، وأن الموضوع يحتاج فقط لوقت حتى يصبح سليمًا معافى.

ما فعله أحمد خلسة بعد شهرين فقط من الزواج، قامت به سارة سرًا بعد مرور عامين على زواجها، فبعد أن انتهى العام الدراسي، وأثناء الفترة التي تقوم فيها سارة بالانضمام للجان تصحيح أوراق إجابات الشهادة الإعدادية، حجزت موعدًا في عيادة النساء والولادة التابعة لأشهر طبيبة في مدينة شبين الكوم.

بعد الكشف، والفحص، وعمل الأشعة التليفزيونية، ظهرت بعض الأورام على المبيض الأيمن لسارة، والتي جعلت الحمل مستحيل بوجودها، ونصحتها الطبيبة بإزالة تلك الأورام جراحيا، ثم متابعة العلاج؛ لتعود لها القدرة على الإنجاب.

تركت عبارة "هناك بعض الأورام على المبيض ...." أثرًا غاية في السوء على سارة، وتذكرت الورم القديم الذي أصاب ثديها منذ عامين.

توجهت سارة بلا تأخير إلى عيادة الطبيبة/ هاجر عبد المجيد، أشهر طبيبة أورام سرطانية في محافظة المنوفية.

كانت سارة قد جمعت معلومات عن أطباء الأورام منذ علمها بإصابتها بالسرطان سابقًا؛ تحسبًا لظهور أي أعراض، وكان الجميع يوصي بالطبيبة هاجر عبد المجيد؛ لأسباب مهنية، وإنسانية، ونفسية مما دفع سارة إلى استشارتها فور خروجها من عيادة النساء والولادة.

طلبت د/ هاجر بعض التحاليل أهمها دلالات الأورام.

توجهت سارة إلى معمل "أوميجا" الكائن فوق مطعم الطيبات الشهير؛ لأن أحد ملاك المعمل هو الدكتور/ الجيوشي - الأخ الشقيق الأكبر لإحدى زميلات سارة من أيام الجامعة - وتثق فيه كثيرًا، وتعتمد على تلك الثقة؛ ليجعل نتيجة التحاليل سريعة، ودقيقة، وسرية.

استلمت سارة نتيجة تحاليل دلالات الأورام، وتوجهت بها إلى عيادة د/هاجر

لم تكن النتيجة سلبية، بل أن نسبة الدلالات أكدت أن الأورام حول المبيض سرطانية، وأن تلك الأورام مرسلها الورم الأصلي الذي كان متوطن في الثدي قبل استئصاله.

الغير مبشر في حديث الطبيبة أن الورم الثديي بدأ في الظهور مرة أخرى، وأرسل الخلايا السرطانية إلى العديد من أعضاء جسد سارة الأخرى، وعليه فلابد من البدء السريع في الخضوع للعلاج الكيماوي.

****

عزيزي القارئ أنصحك أن تتخطى الجزء القادم، وأعدك أنه لن يفوتك شيء من الأحداث الأساسية، والمحورية المؤثرة في أحداث الرواية، عدا بعض اللحظات الإنسانية التي تخاطب القلب، وربما تجعل بعض الدموع تنسال لا شعوريًا.

تذكر أنني نصحتك بذلك قبل أن تبدأ بالقراءة، وتعود؛ لتلومني على ما سطرت بها لاحقًا.

****

رحلة الأمل والألم

للمرة الثانية خلال عامين أخبر أحدهم سارة أنها مصابة بأورام سرطانية، وأن عليها أن تخضع لبرنامج علاجي بأسرع ما يمكن.

للمرة الثانية آثرت سارة عدم اتخاذ خطوة، إلا إن ظهرت أعراض لا تستطيع تحملها.

بالنسبة لها فإن الخضوع لبرنامج علاجي يعنى تساقط شعر الرأس، وضخ سوائل حارقة في الدم تسبب القيء والاسهال، وتترك أثار حروق على الذراعين.

إذًا، فليتأجل ذلك، حتى يصبح ضرورة ملحة لا غنى عنها.

لم تخبر سارة زوجها بزيارتها لطبيبة النساء والولادة، ولا زيارتها لطبيبة الأورام ومعمل التحاليل. لم تخبره أنه أصبح هناك ملف يحمل اسمها داخل عيادة د/ هاجر عبد المجيد يحوي كل نتائج التحاليل التي قامت بها، إضافة إلى تشخيص حالتها حسب رأي الطبيبة، استنادًا إلى الأوراق المرفقة.

تظاهرت سارة أنها لم تجر تلك الزيارات، وتجاهلت كل ما ترتب عليها، واعتبرته كأن لم يكن.

استمرت الحياة على نفس وتيرتها السابقة دون تغيير، أو تبديل، ظهرت نتيجة الشهادة الإعدادية، وكان أحمد حاضرًا رفقة سارة مع كل مدرسي مدرسة جنزور الإعدادية؛ للاحتفاء بالطلاب، وتهنئتهم، وتقبل الشكر والثناء على مجهوداتهم.

انتهى اليوم الذي كان أشبه باحتفالية تبادل فيها الأهل والطلاب والمعلمون التهاني والتبريكات، وعاد الجميع إلى منازلهم.

شعرت سارة ببعض الألم في عضلات ظهرها قرب عمودها الفقري، ظنت سارة في البداية أن الوقوف طوال اليوم هو ما تسبب لها بذلك الألم؛ فتناولت بعض المسكنات مع باسط للعضلات.

لم تنجح المسكنات في مهمتها، وتضاعف الألم مرة .. مرتين ... مائة مرة، تحول تذمرها من الألم إلى أنين، فبكاء، ثم إلى صراخ متواصل.

فزع أحمد كثيرًا، وانتفض مهرولًا إلى أقرب صيدلية؛ ليطلب من الصيدلي هناك أن يمده بأقوى مسكن، شارحًا له ما حدث لزوجته.

نصحه الصيدلي بالتوجه فورًا إلى مستشفى جامعة المنوفية قسم الطوارئ، وعليه فقد تكور أحمد داخل سيارته الفيات 124 خلف المقود، بعد أن وضع زوجته في الكرسي الخلفي، وهي ما تزال تعاني من ذلك الألم الشديد الذي لم يجدا له علاجًا حتى الأن.

وصلا الزوجان إلى قسم الطوارئ ، واستقبلهما الأطباء والمسعفون هناك، وحاولا بشتى الطرق تخفيف الألم دون جدوى، واستمر صراخ سارة بلا توقف، رغم كل المحاليل التي حوت أقوى المسكنات المتاحة في قسم الطوارئ .

بدأ أحمد بالانفعال، وعلا صوته الذي كان استجداء، وتحول إلى تهديد:

إن حق زوجتي أن تجدوا لها حلًا ليزيل عنها ألمها، الذي بدأ منذ أكثر من ساعة، ولم تفلح معه كل سوائلكم السحرية، وحبوبكم العجيبة، لا تضطروني أن أسلك سبل الغوغاء والسوقة؛ للحصول على أبسط حق للمريض، وهو تخفيف آلامه.

توجه أحد المسعفين إلى مكان تمركز أفراد الأمن وهمس في أذنه بما مفاده أن نوبتجية الليلة على وشك أن تصبح أحداثها مثيرة ومليئة بالشغب.

ما فعله أحمد كان عجب العجاب، فقد بدأ يشارك سارة في الصراخ، ولكن بصوت أعلى، ودون توقف، إن لم يكن قادرًا على مشاركتها ألمها، وتحمل بعضًا منه، فعليه أن يشاركها طريقة الإعلان عن ذلك الألم؛ حتى يستجيب من ينزعج لصرخاتهما معًا، ويسعفها نجاة من تلك الجلبة التي يحدثاها.

انشغل كل الحاضرين إما باستدعاء رجال الأمن، أو بحماية كل ما هو قابل للكسر أو التخريب، إلا شخص واحد قام بإجراء أجرى مكالمة هاتفية، ثم اقترب من أحمد، وهمس في أذنه أنه يحتاج إلى مساعدة من مستشفى الأورام التي تقبع في نفس محيط مباني المستشفيات الجامعية المحيطة بكلية الطب، أخبره بكل هدوء أنه شرح الأمر كله للطبيبة المناوبة هناك "د/ ريهام"، وأنها في انتظارهما هناك الأن.

لم يناقش، ولم يجادل، لكنه حمل سارة بين ذراعيه، وهي تكاد تموت ألمًا، وقع كل المسافة حاملًا إياها إلى مستشفى الأورام بالمنوفية، حيث وجد د/ ريهام في انتظاره بالفعل في غرفة الاستقبال، وأمامها محقن ممتلئ بسائل شفاف غرسته في ذراع سارة فور استقرارها فوق أحد أسرة قسم الاستقبال.

كان لما حقنته د/ريهام في أوردة سارة مفعول السحر، فقد بدأ ألمها في الزوال، ثم غطت في نوم عميق خلال دقائق معدودة.

ظن أحمد أن مشكلته قد حلت، وأنه فور استعادة سارة لوعيها ستعود معه إلى المنزل، وتعود حياتها إلى سابق عهدها، ولكنه كان مخطأً في ذلك، فقد طلبت د/ ريهام أن يجري فني الأشعة أشعة تلفزيونية على موضع الألم، كما طلبت بعض تحاليل الدم، ودلالات الأورام لتتضح لها حالة سارة، وسبب ذلك الألم الذي لم يختف إلا بجرعة من مسكن المورفين، الذي لا يمكن توفيره إلا بصعوبة، ومن خلال منافذ شرعية بطرق شرعية للمرضى الذين يحتاجونه فعليًا، وبصورة ضرورية.

اضطر أحمد إلى البقاء في مستشفى معهد الأورام برفقة سارة، التي نقلت إلى القسم الداخلي حسب توصية د/ ريهام.

في اليوم التالي، أظهرت الأشعة التليفزيونية أن هناك عدة أورام منتشرة في جسد سارة، بعضها تمركز حول الأعصاب الممتدة في عضلات ظهرها؛ لذلك شعرت بذاك الألم الرهيب.

كما أوضحت نتيجة فحص الدم، ودلالات الأورام انتشار أورام سرطانية بمنطقة الحوض حول المبيض، وداخل الرحم، وحول العمود الفقري، وفي منطقة الثدي مرة أخرى.

****

استغرقت رحلة العلاج، والأمل الممتلئة بالعذاب، والألم قرابة العامين حتى انقضت، لكني لن أقص ذلك بكامل تفاصيله، سوف أنتقى لكم اللحظات المليئة بالدروس، والعظات، والمشاعر الإنسانية لأصفها لكم، وأحولها إلى سطور مكتوبة؛ لعلها تمس قلوبكم، وتلمس أرواحكم.

****

بدأت سارة رحلة العلاج التي كانت تسير في اتجاهين:

الأول/ الخضوع لبرنامج علاج كيميائي تحت اشراف د/ هاجر عبد المجيد.

والثاني/ التردد على عيادة الألم الكائنة في المعهد القومي الأورام بالقاهرة في منطقة فم الخليج، على مسافة ليست بالبعيدة عن مستشفى القصر العيني؛ لصرف المسكنات الملائمة

والمناسبة التي تستطيع أن تسيطر على نوبات الألم التي أشرت إلى واحدة منها سابقًا.

هنا يجب ذكر الشيء الأهم الذي أقسم أحمد على تنفيذه مهما حدث بطلب من سارة، علمت سارة ما قد ينتظرها؛ فطلبت من زوجها أن يقطع وعدًا بألا يسمح لكائن كان أن يراها، وهي في حالة أو وضع غير لائق، أو أن يسمح لأي من زملائها، أو أقاربها أن يعاونه في أمورها الشخصية.

بدأت سارة رحلة العلاج الكيماوي، وكانت تتلقى جلسات العلاج في مبنى مستشفى الهلال المجاورة لمسجد "الجامع العباسي" في مدينة شبين الكوم، متبعين البرتوكول المخطط له حسب حالتها دون إهمال، أو تأخير.

عانت سارة من كل أعراض العلاج الكيماوي، كل الأعراض بلا استثناء، وخارت قواها، ولم تستطع الحركة لفترة طويلة، ولكنها كانت بطلة مناضلة، لم تفقد الإيمان، واليقين أن كل ما تمر به هو قدرها، وابتلاء من ربها، إما أن تصبر في صمت؛ فتؤجر، أو أن تشتكي، وتولول، ولها من الله ما تستحق، اختارت سارة أن تحارب في صمت، وتقاوم الألم دون جلبة.

لم تكن سارة وحيدة كليًا في رحلتها، كان أحمد موجود طيلة الوقت، يشغل وظائف السائق، والحارس الشخصي، والمعين إن كانا خارج المنزل، أو في زيارة لإحدى المنشآت الطبية، وإن كانا في المنزل يقوم بالطهي، والغسيل، والتنظيف، بالإضافة إلى أعمال التمريض، من متابعة جرعات العلاج، والمسكنات، والحقن، وتبديل الضمادات، عندما احتاجت إلى ذلك، والأهم من كل هذا معاونة زوجته على أعمال النظافة الشخصية من استحمام، ودخول المرحاض، وتغيير الملابس، وخلافه.

لم يشكو أحمد، ولم يتذمر، وقام بواجباته على أتم وجه، كما أقسم ألا يستعين بأي شخص يعرض عليه أن يشاركه في مهام العناية بزوجته، وعندما كان يسأل عن حاله كانت عبارة واحدة "الحمد لله في أفضل حال." تنطلق دون تفكير من بين شفتيه.

رغم تحسن حالتها، وانحسار الأورام، واختفاء معظمها فقد أنهكت الأعرض الجانبية لمحاليل العلاج الكيماوي جسد سارة، وظلت تتناول المسكنات، التي وصلت إلى جرعات كبيرة من المورفين على هيئة لاصقات تلصق بالجسد لمدة يومين، أو ثلاثة، ثم يتم تبديلها بلاصقات جديدة.

كانت عيادة الألم بالمعهد القومي للأورام هو مصدر كل تلك المسكنات المدرجة على جدوال الأدوية المحظورة الصرف بلا وصفة طبية معتمدة.

تتكرر رحلة عيادة الألم مرتين شهريًا، المرة الأولي يلتزم أحمد بإحضار سارة ليراها الطبيب المعالج ويتأكد أن مريضته مازالت على قيد الحياة قبل أن يمنحها المسكنات التي تكفيها لمدة اسبوعين، حيث يتجاوز ثمن تلك المسكنات آلاف الجنيهات لكنها تصرف مجانًا، الرحلة الثانية تكون في منتصف الشهر، ويسمح للمرافق أن يذهب بدون المريض لصرف العلاج اللازم.

زيارات أحمد لعيادة الألم كانت طويلة، ومرهقة، ولكنه تعلم منها أهم شيء في حياته،

تعلم أن يقدر نعم الله عليه، إن الصحة أهم نعم الله على الإنسان، أن تسمع الأنين المتواصل لمريض يجلس قبالتك منتظرًا دوره بالساعات؛ ليتلقى علاجًا ليس لمرضه، وإنما ليسكن الألم الشديد الذي يلازمه، ويرافقه ربما لفترات طويلة، ألم يمنعه من النوم، أو التمتع بلحظة استرخاء عادية جدًا، يجعلك ذلك تقدر نعمة الراحة، وإن كنت أعمى، أو أصم، أو لك

طرف مبتور، أو كل الأطراف مفقودة، تشاهد من حولك المرضى، وتسمع قصصهم، وترى كل المتناقضات.

ترى بعض المرافقين مفترشين الأرض؛ يدلكون أقدام مرافقهم المريض في حب، وود، وإخلاص، وعيونهم تمتلأ بالأمل في الراحة، والشفاء.

وتشاهد أخريين يقفون بلا مبالاة بجوار مرافقهم الذي يئن ألماً، وعيونهم تشر؛ رغبة في الخلاص من تلك الورطة، والمصيبة، ولو بموت مريضهم، أو قتله إن أصبح ذلك متاحًا؛ ليعودوا إلى حياتهم الرتيبة، والخالية من أنين مستمر؛ يصيبهم بالتوتر، والأرق، والشعور بالذنب، إن كانت لديهم جزء من حاسة الاحساس، والشعور.

الفئة الثالثة، وهي أكثر الفئات انتشارًا بين المترددين على عيادة الألم، دعنى أقص عليك إحدى القصص، وسوف تفهم ما أعنيه.

(اعتدلت تلك المسنة من رقدتها، وطلبت بصوت مخنوق، حزين، أن يمدها أحد الحاضرين بشيء تتناوله، فليس لديها شيء يؤكل، سارع الكثيرين من مرافقي المرضي الأخريين بإعطائها زجاجات العصير، وعبوات البسكويت، والشيكولاتة.

مدت المسنة يدها، وأخذت زجاجة عصير، وعبوة بسكويت، وشكرت الجميع، بعد أن رفضت أن تحتفظ بالمعروض عليها، واكتفت بما اعتقدت أنه سيسد جوعها، ويمدها بالطاقة اللازمة؛ لاستكمال رحلتها لذاك اليوم.

انهالت على العجوز الكثير من الأسئلة، تمحور معظمها عن سبب وجودها بمفردها في مثل هذا المكان، فاختارت أن تقص على مسامعهم حكاية تحوي كل الإجابات المنشودة.

-كان الله في عون ولدي الوحيد؛ فلدية زوجة، وأولاد، متطلباتهم كثيرة، والعناية بهم ترغمه أن يعمل ليل نهار؛ لتوفير النقود اللازمة لمدارسهم الدولية، واشتراكات النادي، وتدريبات السباحة، والمسافة بين بيته في القاهرة الجديدة ومنزلي في السيدة زينب كبيرة، والرحلة مرهقة، للأسف لم أعد قادرة على زيارة أحفادي، كما كنت أفعل سابقًا.

جزى الله جارتي عما تفعله معي خيرًا، فهي تصحبني في كل موعد، وتظل معي حتى انتهى من صرف أدويتي، وننصرف سويًا.

لكنها اليوم تستضيف أحفادها، لذلك فقد أحضرتني صباحًا، وذهبت لتعتني بأطفال ابنتها، وسوف تأتي؛ لنعود للمنزل بعد قليل..... ها هي أتت لتأخذني، قالتها وهي تشير إلى سيدة تخطت الخمسين عامًا من عمرها.

انهالت الدعوات تستقبل الجارة، دعوات بعضها مصحوب بالدموع، وبعضها مصحوب بالرجاء، لكن الجارة لم تفهم سر تلك الحفاوة، ولن تفهم، فقد تأبطت المريضة مرافقتها، وغادرت على عجل.)

اعتقد أنك بعد سماع تلك القصة، عرفت النوع الثالث من المترددين على عيادة الألم، إنهم مرضى تخلى عنهم الأبناء، والبنات، ولولا لطف الله ما استطاعوا مواصلة رحلتهم العصيبة في الحياة.

اعتاد أحمد على رحلة عيادة الألم، مرة ترافقه سارة، ومرة أخرى بمفرده، يتعلم كل زيارة شيء جديد، ويزداد إيمانه، وتقديره لنعم الله عليه.

أما عن رحلة العلاج فقد كانت تسير على ما يرام، حتى حدث شيء لم يكن في الحسبان، ففي إحدى الزيارات لمستشفى الهلال، وأثناء التجهيز، وتركيب الكانيولات الخاصة بتلقي محاليل العلاج الكيماوي، بدأ جسد سارة في الانتفاض، والارتعاش، والتشنج، وبدأت رغاوي بيضاء تخرج من فمها، وتصلب جسدها بالكامل، وظن أحمد، والمرضى المحيطين، ومرافقيهم أن سارة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وأن روحها في طريقها إلى بارئها.

صرخ أحمد بأعلى صوته مستنجدًا، وفي لمح البصر حضرت طبيبة، وممرضة ثانية؛ لنجدة سارة، هدأ جسد سارة، ظلت فاقدة للوعي، إلا أن قفصها الصدري ظل يعلو ويهبط؛ دلالة على أنها لم تفارق الحياة.

همست الطبيبة في أذن أحمد، وشرحت له ما حدث، إنها نوبة صرع، أصيبت سارة بالصرع كعرض جانبي من أعراض التعرض للعلاج الكيماوي لفترات طويلة، وعليه فإنه يستوجب تعطيل خطة العلاج لفترة حتى تستقر حالة سارة الجسدية، وتتأقلم مع المستجدات.

كان لذلك التوقف أثر سلبي على خطة العلاج، فقد استغلت الخلايا السرطانية ذلك التوقف، وتوحشت، وتوغلت، وتجمع الكثير منها، وبات إزالة بعضها ضروريًا.

لم تكن تلك هي المعضلة الوحيدة التي أضجرت أحمد، وجعلته يستشيط غضبًا على غير عادة الصبر الشديد، التي اكتسبها مؤخرًا، فأثناء زيارته المعتادة لعيادة الألم بمفرده صادف وجود طبيب مختلف عن الطبيب المتابع لملف سارة، أصر ذلك الطبيب على صرف علاج كاف لمدة أسبوع واحد فقط، على أن يحضر أحمد سارة الأسبوع التالي برفقته؛ ليعاينها الطبيب بنفسه.

فشلت كل محاولات أحمد ليقنع الطبيب الشاب بأن ذلك شاق وصعب، وعلى شاكلة كل المصريين في شخصنة المشاكل، واختلاف وجهات النظر، فقد ظن أحمد أن كون الطبيب مسيحي صغير السن، ومدلل يرتدي سلسة وسوار ذهبي؛ وراء تعنته مع شخص يختلف عنه في الديانة.

حضر أحمد برفقة سارة، وقابلا "مينا عادل" نفس الطبيب الذي كان يعاملها بكل تحضر، ومراعاه – بينما كان أحمد يعتقد أنه يفعل ذلك ليخفي نواياه الخبيثة – ثم وبعد أن قرأ ملف سارة بعناية، وقبل أن يسجل في الوصفة الطبية تلك المسكنات التي اعتاد الأطباء كتابتها، نظر "مينا" إلى سارة مباشرة موجهًا حديثة لها:

"لقد عكفت على قراءة ملفك جيدًا ضمن مجموعة من الملفات التي اخترتها بعناية، وأريد أن أقترح عليك بديلًا ممتازًا لكل تلك المسكنات، ورحلات العلاج ذهابًا وإيابًا، غضب زوجك كثيرًا؛ لأني أصررت على رؤيتك قبل الموعد بأسبوع، ولكن هدفي كان؛ لإعفاءك من الحضور لفترة طويلة إن وافقت على مقترحي، باختصار شديد فإن عملية (Nerve Block) ستكون أكثر من كافية؛ لترتاحي من آلامك لفترة طويلة، إن لاقت الفكرة موافقتكما، فعليك أن توقعي بالموافقة على ذلك الإقرار، وسيتم كل ذلك الليلة دون تأخير".

الجهل بالنوايا يولد الغضب، والمواقف العدائية المتوارثة بلا سبب تحجب العقل، والأحكام المسبقة المبنية على المظهر الخارجي تفسد الفكر، هذا ما تعلمه أحمد من تلك المرة التي كانت زيارته الأخيرة لعيادة الألم، بعد أن خضعت سارة للعملية المقترحة من قبل الطبيب المسيحي الثري المدلل، الذي ظن أحمد خلافًا للحقيقة في البداية أنه غير كفء.

للمرة الأولى منذ ما يزيد عن العام استطاعت سارة أن تنام بلا مسكنات، أو نوبات ألم تتخلل نومها، وتوقظها مفزوعة لتطلب المزيد من المسكنات.

تعلم أحمد أن الرحلة شاقة، وعصيبة، وأنه لابد أن يكون مستعدًا لأي طارىء في أي وقت، تلقى أحمد الكثير من كلمات الرثاء، والمواساة على ما يعانيه برفقة زوجته المريضة، والتي جعلته يجوب أماكن لم تكن لتخطر له على بال، كان أحمد يتلقى تلك العبارات بابتسامة، أزال الزمن ألوان بهجتها، وأضاف الألم الذي تعانيه سارة مرارة إلى مذاقها، لم تكن هناك كلمة لتكفي ردًا على تلك العبارات التي يسمعها أحمد عشرات المرات يوميًا.

المرة الوحيدة التي تفوه فيها أحمد ردًا على عباراة مواساه عندما قال له منصور:

- أن أشعر بالألم الذي تشعر به، وأعلم المصاعب التي تواجهها، وأدعو الله أن يعينك على ما ابتلاك به.
- وهل أنا أتألم، أو أعاني، نحن لا نعلم شيئًا عن الألم، ولا العذاب، نحن جميعًا بلا مشاكل، وكل ما نظنه مشاكل هي أشياء تافهة من صنع عقولنا، أعتذر منك يا والدي، وأأسف كثيرًا على كلماتي التي ربما تظنها في غير محلها، ولكنك تقول أنك تشعر بألمي، ومعاناتي، السؤال هنا من منا يشعر بآلام سارة ومعاناتها؟ الإجابة أن لا أحد يفعل، ولا أحد يستطيع أن يفعل، وعليه فلنغلق أفواهنا، ونستمر منعمين في حيواتنا صامتين،

حامدين، شاكرين، متجاهلين كل منغص من صنع أنفسنا، ولنحيط هؤلاء الذين يتألمون فعليا بالكثير والكثير من الحب؛ عل ذلك يخفف عنهم ولو بعض آلامهم.

احتضن منصور ولده، وضمه بشدة مؤكدًا بذلك أنه ليس غاضب، وأنه اقتنع بكل حرف مما قاله.

توحشت الأورام السرطانية، وهاجمت أعضاء سارة بشراسة، وتوجب حجزها في قسم الجراحة الداخلي للمستشفى الجامعي بشبين الكوم.

كانت سامية هي مرافقة سارة التي تبيت معها كل ليلة، لكن وجود أحمد بحد أقصى كل ثلاث ساعات كان الأهم بالنسبة لسارة، فهو يحملها، ويدخل بها إلى دورة المياه، ويساعدها في الداخل في كل كبيرة وصغيرة، وتخرج برفقته بعد أن تستحم، وتبدل ملابسها.

صار الروتين اليومي لأحمد كالتالي، يذهب للمدرسة الثامنة صباحًا، وفي تمام العاشرة، وبعد أن ينهي حصصه الأولي يكون أمام سارة ليؤدي مهام النظافة الشخصية، ثم حين تدق الساعة الحادية عشر صباحًا يعود إلى مقر المدرسة حيث ينهى باقي واجباته الوظيفية، ويعود للمستشفى؛ لينهى مهامه مع سارة، ويبقى في سيارته المركونة أمام مبنى مستشفى الجامعة؛

ليقضي باقي يومه، وليلته بين سيارته، وبين التوجه حيث سارة ووالدته برفقتها؛ يقوم بكل ما هو مطلوب، ويحضر لهما الطعام والعصائر والأدوية المطلوبة، يبيت أحمد في سيارته أسفل مبنى المستشفى، ويتوجه للمنزل في تمام السادسة؛ لتجهيز ملابس نظيفة، ووضع الغسيل المتسخ في الغسالة، ونشر الغسيل الذي تم غسله، وجمع ما جف وطيه وترتيبه، ثم يبدل ملابسه، ويتوجه إلى مدرسته، ويتكرر اليوم بنفس الوتيرة.

عشرة أيام مكثتها سارة بصحبة سامية في مقر المستشفى، استأصل الجراحون خلالها أكثر من ورم.

بدأت الامتحانات، واضطر أحمد للبقاء في المدرسة حتى نهاية اليوم الدراسي دون فترة راحة تكفي للذهاب والإياب، ووصل أحمد للمستشفى في تمام الثانية ونصف بدلًا من العاشرة ونصف كالعادة، قابلته سارة بالسباب، والشتائم، ووصفه بأفظع الصفات، ثم وفور اقترابه منها طوحت يدها وصفعته بقوة، ثم أحاطت رقبته بكلتا ذراعيها، وضمته بشدة نحوها، ولم تنطق بالمزيد، بلا أي رد فعل على ما حدث حملها أحمد على الفور، وتوجه بها نحو المرحاض، حيث جردها من كل ملابسها، وقام بمساعدتها في أمور النظافة الشخصية،

والاستحمام، وتبديل الملابس، وخرج حاملاً إياها دون أي اعتراض أو رد منه على ما اقترفته بحقه منذ دقائق على مرأى ومسمع من كل الحاضرين.

تأخر أحمد كثيرًا، ولكنه حضر في الوقت المناسب تمامًا، قبل أن تضطر سارة إلى طلب المساعدة في شيء عاهدت نفسها ألا تطلبه من أي كائن سوى زوجها وحبيبها ورفيق عمرها وسندها، تلمست سارة بكل رقة موضع صفعتها وطبعت أكثر من قبلة رقيقة موضع أصابع يدها على وجه أحمد؛ في محاولة لصياغة ألف اعتذار، لكنها لم تكن بحاجة إلى ذلك، فأي فعل، أو ذنب، أو حتى جريمة تقترفها سارة، يغفرها أحمد بلا تفكير، أو حمل أي ضغينة.

ظلت سارة في قسم الجراحة يومين إضافيين، ثم فجأة، وبدون مقدمات فقدت الوعى، ونقلت إلى قسم العناية المركزة، لقد تمكنت منها الخلايا السرطانية، ونالت منها، وأعيتها، ربما باتت الرحلة على وشك النهاية.

عادت سامية إلى المنزل بعد أسبوعين أمضتهما برفقة زوجة ولدها، وتقدم أحمد بطلب إجازة لمدة شهر؛ ليتثنى له البقاء في سيارته بقرب حبيبته سارة التي أصبحت حبيسة جسدها

المطروح على أحد أسرة العناية المركزة، مازالت أعضاؤها تعمل بمساعدة أجهزة التنفس الصناعي، التي لو نزعت لفارقت سارة الحياة على الفور.

مرت أربعة ليالي أخريات، وتلقى أحمد مكالمة هاتفية مفادها أن حبيبته فارقت الحياة، وعليه أن يستلم بعض الأوراق؛ ليستخرج تصريح الدفن، ومن ثم يستلم الجثمان، ويتثنى له دفن محبوبته بعد رحلة من العذاب شاركها كل لحظة فيها، إلا شيء واحد، هو أهم شيء، وهو اقتسام آلامها، وأخذ نصيبه منها.

ظل أحمد في قمة تماسكه، وأنهى الاجراءات الورقية، وبمساعدة المسعفين وضع زوجته في سيارته في المقعد الخلفي، وقاد عائدًا إلى بيته، وصل أحمد منزله بينما تواشيح الفجر تعلن قرب موعد الأذان، دخل أحمد المنزل، وطلب من والديه مساعدته في وضع جثمان سارة على سريره في غرفته بشقة والده.

قامت سامية باستدعاء بعض السيدات المؤتمنات؛ لمساعدتها في أمور الغسل والتكفين، وأعلنت مكبرات الصوت في مختلف مساجد القرية عن نهاية قصة حياة بطلة مناضلة، حاربت، وتألمت، وصعدت روحها عند خالقها في وقتها المعلوم المحدد مسبقًا من قبل رب

العالمين، وأعلن أن صلاة الجنازة ستكون بعد صلاة الظهر، وستنطلق بعدها مراسم التشييع من المسجد البحري.

تقدم أحمد المصليين مؤمًا إياهم في صلاة الجنازة، ثم أصر على المشاركة في حمل النعش في رحلة الوداع، وحتى دفن الجثمان، انطلقت الجنازة وفوجيء جميع المشيعين بمنظر غاية في الروعة؛ دفع الدموع دفعًا أن تسيل، وتبلل الوجوه.

تزين جانبي الطريق من المسجد، وحتى المقابر بكل تلاميذ مدرسة جنزور الاعدادية مرتدين زيهم المدرسي، الأولاد، والبنات يحمل كلًا منهم سعفة نخيل، ويودعون معلمتهم بالدعوات والدموع، سار حاملي النعش في ممر شرفي من صنع الأطفال الأبرياء، حاملين الغصون الخضراء، ودعواتهم الجهرية، والسرية جعلت الجميع يرددون معهم تلك الدعوات، هل هي جنازة إلى القبر؟ أم هي زفة روح بريئة إلى الجنة؟ انتهت المراسم، وخلد أحمد أخيرًا إلى النوم.

كانت الليلة الأولى بدون حبيبته، التي أبت أن تتركه بلا وداع، زارته سارة في منامه، وأخبرته ألا ينزعج، أو يغضب؛ فهي في مكان أفضل، وذكرته بقسمه أن يكمل حياته، وأن

يبحث عن حبيبة يكمل معها حياته، اعترض أحمد؛ متعللًا بأنه لم يقدم لها ما تستحقه، فابتسمت سارة، وأخبرته ألا يقلق حيال ذلك، ولا ينشغل، وألا يتعلق بالماضي.

تذكر أحمد أمنيتها، وأخبرها أنه سيسافر إلى بلد أوروبي، ويبحث عن بحيرة متجمدة، ويخلع نعليه، وجوربه، ويسير فوقها حتى يفقد الشعور بقدميه، أخبرها أحمد أن تلك هي الطريقة الوحيدة التي ستجعله يشعر أنه سدد لها دينه، ويستطيع بعدها أن يمضي في طريقه باحثًا في المستقبل عما قد يثير اهتمامه.

ضحكت سارة، وقهقهت، ونظرت إلى عينيه مباشرة، وسألته:

- أتظن أن ذلك سيكون أكثر نفعًا لي من دعواتك؟ إن كانت تلك رغبتك فليكن، ولكن عدني أنك ستتحرر بعدها، وتمضي قدمًا في حياتك.

اختفت سارة، وانتهى الحلم، واستيقظ أحمد، ولديه هدف جديد في حياته، هدف واحد صوب عينيه، لن يستطيع المضي قدمًا قبل أن يحققه.

****

هنا عزيزي القارئ انتهى الجزء الذي نصحتك بتخطيه، إن كنت فعلت، فإليك مختصر ما كتب فيه:

توفيت سارة بعد رحلة صراع مع المرض اللعين، ودفنت، ووعدها أحمد بألا يمضي قدمًا في حياته قبل يحقق لها أمنيتها القديمة بالسير حافيًا فوق بحيرة متجمدة حتى يفقد الشعور بقدميه، ومن هنا بدأ رحلة بحث عن طريقة لتحقيق ذلك.

****

الطريق إلى جلاسكو

انتظم أحمد في عمله مرة أخرى، وظن الجميع أنه سيمضي قدمًا في حياته دون التوقف، أو التأخير مرة أخرى.

كان هم أحمد الأوحد أن يجد طريقة للسفر إلى أوروبا، فتقدم بطلبات الحصول على تأشيرة دخول سياحية، لم يكن أحمد قد غادر أرض جمهورية مصر العربية سابقًا، وكونه لم يتخط الثلاثين جعل طلب الحصول تلك تأشيرة نوع من المستحيل.

في نهاية أحد الأيام الدراسية، وبينما أحمد يوقع للانصراف، طلبت منه مسئولة شئون العاملين التوقيع بالعلم على نشرة مرسلة من قسم البعثات بمديرية التربية والتعليم تخص معلمي مواد اللغة الإنجليزية والعلوم والرياضيات.

قرأ أحمد المنشور المرسل قبل أن يوقع عليه بالعلم، ووجد فيه ضالته المنشودة، فقسم البعثات يدعو المعلمين من التخصصات السالفة الذكر، والراغبين في السفر ضمن البعثات التدريبية الخارجية إلى جامعات أدنبرة، وستراثكلايد باسكتلاندا، بضرورة تعبئة البيانات في

الاستمارة الملحقة، واستكمال الأوراق المطلوبة، وتسليمها إلى الموظف المسئول في قسم البعثات قبل اليوم المحدد في المنشور.

أنهى أحمد كل الأوراق، والإجراءات المطلوبة، وسلم تلك الأوراق إلى مدام "صابحة" المسئولة عن قسم البعثات الخارجية في مديرية التربية والتعليم بالمنوفية، وبقي عليه اجتياز الاختبارات؛ ليكون عضوًا في إحدى تلك البعثات التعليمية الخارجية.

الاختبار الأول لم يكن سوى مناقشة مفتوحة باللغة الانجليزية؛ للتأكد أن المرشح للسفر يستطيع التحدث باللغة الانجليزية، الكارثة التي اكتشفها أحمد أن حوالي 5% فقط من معلمي اللغة الانجليزية يستطيعون استخدام اللغة خارج اطار حل الامتحانات، وشرح قواعد اللغة، نعم يا سيدي ما أقوله لك صحيحًا، ومؤكدًا بالأرقام.

تقدم للاختبار الشفهي ما يزيد عن ثمانية آلاف معلم، بينما نجح خمسمائة فقط في تخطي الاختبار الشفهي الذي يقيس قدرتهم على التحدث، والحوار باللغة الانجليزية.

معلومة تعكس حقيقة كارثية، وهي أن تدريس اللغة الانجليزية في مصر تحول من تعلم لغة لاستخدامها في الحياة اليومية، والتعامل مع من يتحدثوها، إلى القدرة على تحصيل الدرجات،

واجتياز الاختبارات بامتياز، دون التطرق إلى تعلم مهارات اللغة الأساسية من تحدث، واستماع.

بالتأكيد ستستنتج أن الكل نجح في اجتياز الاختبار التحريري، وقامت اللجنة المسؤولة عن اختيار المبعوثين باختيار من حصلوا على أعلى الدرجات، أربعون معلم هم قوام البعثة التعليمية المسافرة إلى مدينة جلاسكو؛ للدراسة لمدة ثمانين يومًا في جامعة ستراثكلايد، وأصبح أحمد منصور شهاب الدين رسميًا أحد أعضاء البعثة التعليمية المسافرة إلى سكتلاندا في العاشر من يناير القادم.

يوم السفر

لم يكن أحمد يحمل سوي حقيبة واحدة من نوع "الهاند باج" بناءً على نصائح من سبقه من المبعوثين.

هيئة أحمد ورزانته، وابتسامته الصدوقة جعلت مبعوث آخر "عماد" يقترب منه، ويهمس في أذنه بهدوء:

- هل تحمل صناديق سجائر؟

أجاب أحمد بالنفي، فأخبره عماد أنه أضاع فرصة حقيقية لتحقيق مكسب مضمون، إلا أن الأمر محفوف ببعض الخطورة إن اكتشف.

طلب عماد من أحمد أن يحمل عنه عناء تحمل مسؤولية إحدى الحقيبتين المملوءتين بالسجائر، ولم يعترض أحمد، بل رحب، وطلب من عماد أن يقص عليه كل ما يخص قصة السجائر بالتفصيل.

لم يبخل عماد بالمعلومات التفصيلية عن من تحمل عنه عبء مسؤولية خطيرة من وجهة نظر عماد، رغم بساطة الأمر، وسهولته من وجهة نظر أحمد.

سعر صندوق السجائر في السوق في اسكتلندا ضعف سعره في مصر وعليه فينصح بجلب أكبر قدر منها لبيعها هناك وتحقيق ربح إضافي من وراء ذلك.

"كيف تعرضون تلك السجائر للبيع؟"

"نحن لا نفعل شيئًا. فقط نبقى هادئين وتجار السوق السوداء يرسلون مندوب ليشتري منا السجائر بسعر يتراوح بين 10 و 15 جنيه استرليني للصندوق علمًا بأن سعرها في مصر 7 جنيهات فقط للصندوق."

رحلة إلى "لوخ لوموند"

وصلت البعثة إلى مقر جامعة استراثكلايد بمدينة جلاسكو. وصعد الجميع على متن حافلة من حافلات الجامعة المخصصة لتوصيل الطلاب من سكن الطلاب بربوة "جورن هيل" إلى مقر الجامعة بميدان "جورج سكوير" والعكس يوميًا أثناء الأيام الدراسية التي تبدأ صباح الاثنين من كل أسبوع وتنتهي ظهيرة كل جمعة.

يومي السبت والأحد هما العطلة الاسبوعية للطلاب. واليوم هو الجمعة وقد قررت الجامعة كعادتها مع البعثة المصرية أن تستغل أول عطلة أسبوعية لعمل رحلات ترفيهية تتيح للطلاب الأجانب زيارة معالم اسكتلاندا الشهيرة من قلاع ومزارات أخري.

لم تكن المزارات الأثرية تثير اهتمام المصريين كثيرًا. فأحفاد الفراعنة ممن يمتلكون تاريخ يتجاوز السبعة آلاف عام لن يسترعي انتباههم مبنى لم يتجاوز عمره الألف عام مهما كانت روعته.

الريف الاسكتلندي ومزارع العنب والطبيعة الساحرة لضواحي اسكتلندا كانت مصب اهتمام واعجاب أعضاء البعثة المصرية.

أما عن أحمد فقد ظل يجول ببصره في كل المزارات حتى أعلن المرشد المرافق أنهم على بعد دقائق من التوقف لزيارة بحيرة "لوخ لوموند" الشهيرة.

"لوخ لوموند هي بحيرة اسكتلندية للمياه العذبة تعبر صدع المرتفعات الحدودي وغالبًا ما تعتبر أنها الحد الفاصل ما بين المرتفعات والأراضي المنخفضة بوسط اسكتلندا" هذا ما ذكره المرشد المصاحب للبعثة قبل أن يخبرهم بالحزين في الأمر "للأسف الشديد فإننا لن نستطيع أن نبحر في البحيرة حيث أنها تتجمد طيلة شهور الشتاء وتتوقف كل الأنشطة السياحية المتعلقة بها."

هنا فقط انتبهت كل حواس أحمد وبرغم البرودة الشديدة سرت طاقة غريبة في أوصاله، وفور توقف الحافلة نزل منها مهرولًا وخلع حذاءه وجوربه ونظر ناحية المرشد المصاحب سائلًا إياه للتأكيد إن كانت تلك هي البحيرة التي كان يشير إليها منذ قليل، فأومأ المرشد إيجابًا. فانطلق أحمد يهرول حافيًا متوغلًا في أعماق البحيرة وهو ينظر للسماء باحثًا عن طيف سارة ليكون شاهدًا على ما وعدها به.

تجمدت قدمي أحمد وأصبح لا يشعر بهما من شدة البرودة فعاد إلى حيث ترك جوربه وحذاءه ودفن قدميه فيهما مجددًا ليسمح للدم أن يعود للجريان بقدميه ويعود له الإحساس بهما.

تحرر أحمد من الماضي. شعر بذلك فعليًا وتحررت مع ذلك الاحساس كل خلايا عقله وقلبه التي كانت حبيسة الماضي وسجينة الدين الذي وعد بسداده.

رغم غرابة ما فعله أحمد إلا أن أحدًا لم يجرؤ على سؤاله عن سبب ما فعل بينما انطلق البعض لتقليده ومحاولة فهم ما وراء تلك التجربة.

بدأت أيام الدراسة والمحاضرات التي كانت تشبه كثيرًا في محتواها والهدف منها ما درسه أحمد في قسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية. الاختلاف الوحيد هو أن المحاضر يتحدث باللغة الانجليزية وليس هناك مجال للترجمة أو شرح باللغة العربية.

كانت تلك الميزة الأساسية من البعثة فبعد فترة ليست بالطويلة انطلقت الألسنة في تحد جريء لكل أعراف التدريس المصري للغات الأجنبية.

يبدأ اليوم بالفطور في مطعم "جوردن هيل كامبس" ثم استقلال الحافلة إلى مقر الجامعة في رحلة لمدة 35 دقيقة.

تبدأ المحاضرات في التاسعة صباحًا وتنتهي في الرابعة عصرًا.

بينما تنطلق أخر حافلة تابعة للجامعة نحو سكن الطلاب بجوردن هيل في تمام الخامسة ونصف مما يتيح للطلاب التجول لمدة ساعة ونصف في أرجاء جلاسكو واكتشاف معالمها.

عليك أن تكون في انتظار الحافلة قبل الخامسة ونصف وإلا فستفوتك وسيلة النقل المجانية.

وعليك أن تختار بين استقلال حافلة المواصلات العامة وتدفع اثنين من الجنيهات الاسترلينية، أو أن تستقل أرجلك في رحلة مسير تقارب الساعتين وأكثر.

ولذلك فكان الجميع يحرص على ألا تفوته حافلة الجامعة.

نسيم وصفي

مجرد ستة أيام كانت كفيلة في جمع أحمد منصور ونسيم وصفي في علاقة صداقة وثيقة. تلك الفترة الوجيزة التي جمعتهما في صداقة تظن أن عمرها سنوات وليس مجرد أيام.

كيف بدأت تلك الصداقة ومتى؟

إن لله طرقًا وسبلًا لا يعلم أغوارها إلا هو.

لم يكن أحمد من الحريصين على تكوين صداقات مع أي من أفراد البعثة رغم أنه كائن اجتماعي مسالم ومحبوب وفور أن يبدأ في الكلام يجبر كل من يستمعه على الإنصات والتأثر بما يقوله سواء كان يتكلم في موضوع علمي مهم أو مجرد طرفة أو حكاية هزلية.

أثناء رحلة العودة بحافلة الجامعة. في الأسبوع الأول من وصول البعثة المصرية لمدينة جلاسكو، كان اليوم طويل والكل يشعر بالجوع والإرهاق.

شغل نسيم المقعد المجاور لأحمد في مقدمة الحافلة. التفت نسيم وطلب من بعض أقرانه المسيحيين بعض الطعام إن كان أحدهم لا يزال يحتفظ بقطع الخبز أو حبات الفاكهة مما يدخره

من وجبة الافطار قبل استقلال حافلة الجامعة في رحلة الذهاب لطلب العلم.

ولكن لم يحرك أحدهم ساكنًا أو حتى يكلف نفسه بالرد سواءً بالسلب أو بالإيجاب على طلب نسيم الذي نال منه التعب والإرهاق والجوع مبلغًا شديدًا .

فوجيء نسيم بأحمد في حركة عفوية يفتح كيس ورقي بني اللون ويخرج منه كرة من الخبز محشوة بالمكسرات من ذاك النوع الذي يفضله أحمد عن باقي الأنواع المعروضة في مطعم الجامعة لوجبة الفطور.

اقتسم أحمد كرة الخبز وناول نصفها الأكبر للجالس بجواره دون أن يفكرحتى إن كان الأولى به أن يسد جوعه أولًا ثم يتفضل علي الجالس بجانبه بما يتبقى إن تبقى شيء.

ناول أحمد نسيم حصته من كرة الخبز دون حتى أن ينظرناحيته انتظارًا لإيماءة شكرٍ أو كلمة استحسان.

التقط نسيم نصيبه من الخبز وفتح فاه ليس ليسد رمقه بما جاد عليه به رفيق الرحلة ولكن ليقول أصدق عبارة يمكن أن يكون قد تفوه بها منذ أمد.

نظر نسيم إلى أحمد الذي كان يراقب الطريق من نافذة الحافلة وخرجت من حنجرة نسيم كلمات قليلة أكاد أجزم أن مصدرها القلب "من اليوم وصاعدًا أنت أخي الذي لم تلده أمي."

أنهى نسيم كلماته التي لم تؤثر كثيرًا في أحمد غير أنه نظر إلى نسيم وابتسم بطريقة صامتة فيها قدر من السخرية وكأنه يتساءل إن كانت نصف كرة الخبز تلك هي السبب الذي سيجعله أخ وصديق لشخص جالس بجواره أعياه الجوع، أم هي ترهات يتفوه بها ذلك الجائع من فرط الفرحة بوجود كسرة خبز يسد بها جوعه.

انتهت القصة هنا ولم يتغير شيء بين أحمد ونسيم سوي أنهما أصبحا يستقلان الحافلة يوميًا في مقعدين متجاورين ذهابًا وإيابًا وعليه فقد صارت هناك مواضيع مشتركة للنقاش والحديث بين الرفيقين، كان نسيم في المعتاد هو المتحدث وكان المنصت الدائم لتلك القصص والأحاديث هو أحمد.

ثم جاء الأحد الثالث وكان الجميع يستعد فجرًا لرحلة سوق الأحد. تلك الرحلة التي تستغرق ما يزيد على ساعتين ونصف من السير المتواصل .

بعد تجربة الرحلة مرتين متتاليتين مل أحمد من إهدار يوم الإجازة في تلك الرحلة الشاقة التي تستبدل الراحة بإجهاد شديد وتعب جسيم.

كانت خطة أحمد أنه سيعزف عن الذهاب مع رفاقه ويدخر كل جنيه يتحصل عليه ثم يقوم بتلك الزيارة لسوق الأحد الشهير مرة أو مرتين قبل العودة لمصر بأسابيع، يذهب ليشتري ما يراه مناسبًا له ولوالديه.

مساء ذلك السبت وأثناء انشغال الجمع بالاستعداد لسوق الأحد، فكلٌ ينسق مع من اكتسب من أقران على موعد الانطلاق، جاء نسيم إلى أحمد في غرفته وسأله إن كان سيذهب للسوق غدًا فجاءت الإجابة بالنفي.

لم يعقب نسيم ولكنه أخبر أحمد أن يكون مستعدًا للخروج معه إلى مكان سيكون مفاجأة وأكد عليه ألا يخبر أحدًا .

صبيحة اليوم التالي أشارت عقارب الساعة المعلقة على حائط غرفة أحمد إلى السابعة صباحًا تزامن ذلك مع دقات خفيفة على باب الغرفة وصوت نسيم يطلب من أحمد أن يفتح له الباب.

فتح أحمد الباب ودخل نسيم برفقة شاب أخر غريب كليًا عن أعضاء البعثة.

ذلك الشاب هو "بيتر مجدي" المعروف ببيتر المصري - مصري الجنسية يبلغ من العمرحوالي ٣٧ سنة .-

خمن أحمد أن بيتر ربما يكون قريب نسيم بحكم الديانة المسيحية التي تجمعهما كما أنه عرف من حديثهما عن مدينة أسيوط أنها مسقط رأس كليهما.

لم يستغرق أحمد سوى خمس دقائق وضع خلالها ملابسه واستعد للرحلة المجهولة برفقة نسيم وبيتر.

فوجئ أحمد بوجود سيارة من النوع "سكودا فابيا" اندس بيتر في مقعدها الأمامي ناحية عجلة القيادة، ففهم أحمد أنها سيارته وشغل أحمد المقعد المجاور له بينما جلس نسيم في المقعد الخلفي.

كانت الكلمات المتبادلة قليلة والوجهة غير معلومة لأحمد حتى تبين له أنهم في طريق سوق الأحد ولكن المختلف هذه المرة أنه لا يسلك الطريق سيرًا .

قبل أن يترجلا من السيارة سأل بيتر أحمد إن كان قد جلب معه من مصر أي نوع من السجائر ذات الماركات العالمية مثل "مارلبورو" أو "إل أم"؟ ورغم أنه لم تكن بحوزته ولو سيجارة واحدة من تلك الأنواع أو غيرها فقد كان رد أحمد مفاجئ لكلًا من نسيم وبيتر فقد أخبر بيتر بصوت خافت أن دولاب ملابسه لا يحوي شيئًا سوى صناديق السجائر التي يبحث لها عن مشتري.

كانت تلك هي الكلمة السحرية التي جعلت بيتر هو السائق الخاص لأحمد ولنسيم كل أحد في رحلة الذهاب والإياب لسوق الأحد منذ تلك اللحظة وحتى مقتله واكتشاف جثته بين الثلوج .

استنتج أحمد أن بيتر أحد تجار السوق السوداء ويسعى لشراء صناديق السجائر التي جلبها المصريون برفقتهم من القاهرة.

المهم أنه بعد ذلك أصبحت سيارة بيتر قيد أمر وطلب أحمد ونسيم.

لم يمكث بيتر مع الصديقين ولكنه أبلغهما بالوقت والمكان الذي سيمر ليصحبهما منه بعد نهاية جولتهما في السوق.

ظن أحمد أن تلك هي الخدمة التي أراد نسيم أن يسديها له لقاء نصف كرة الخبز في ذلك اليوم الفائت، فتوصيلة مجانية من وإلى سوق الأحد توفر على أحمد السير لمسافة خمسة أميال ذهابًا ومثلها إيابًا وذلك ليس بالقليل في مقابل نصف كرة من خبز الفرنجة.

كان أحمد على وشك الافتراق عن نسيم ليعطيه المساحة من الحرية ليتجول ويشتري ما يشاء دون أن يشعر أنه مراقب، ولكن نسيم استوقفه وقاله له "أين أنت ذاهب ألم أقل لك أنك من ذاك اليوم وأنت أخي، الآن ستأتي معي إلى مكان إياك أن تخبر عنه حتى أبويك"

تعجب أحمد من الطريقة التي يتحدث بها نسيم كأنه محسن ممتاز يعطي تعليماته الدقيقة لرأفت الهجان.

الطريقة التي تكلم بها نسيم جعلت أحمد يتبعه دون أن يصدر حرفًا واحدًا ليعقب على أوامره.

انطلق نسيم يشق شوارع سوق الأحد وطرقاته المفروشة على الجانبين بالبضائع المستعملة من كل الأشكال والأنواع.

التجار يتبارون في عرض بضائعهم وصفها بطرق توحي للزبائن أنها بحالة البضائع الجديدة رغم أن ثمنها لا يتجاوز ربع ثمن الجديد منها .

أخيرًا تمهل نسيم في خطواته وتبعه أحمد ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة زينت ملامحه المليحة وفتح ذراعيه على اتساعهما لتلتقفه سيدة رشيقة جميلة، وبعد أن بادلها نسيم التحية المختلطة ببعض قبلات الوجنات والأحضان الأموية الدافئة.

نظر نسيم ناحية أحمد وقال لها "هذا أخي أحمد، تقدم يا أحمد لتلتقي صديقتي الجميلة مارجريت."

ألقى أحمد التحية وصافحها بابتسامة ودودة ردًا على ابتسامتها الجميلة التي لم تفارق وجهها منذ رؤية الصديقين.

ظن أحمد في البداية أن نسيم يريد أن يبحث عن مهرب من العودة مجددًا إلى طين الوطن وأن تلك الجميلة التي تكبرهما بحوالي عقدين ونصف هي زوجة نسيم المستقبلية.

ولكن ظهر من خلفهما عملاق في أواخر العقد الخامس من عمره وبادل نسيم التحية وألقى نسيم على مسامعه بعض النكات عن سكان صعيد مصر فكاد العملاق يسقط ضحكًا.

ثم عرف أحمد بعد ذلك أن العملاق روني هو زوج مارجريت وأن الزوجين صارا أصدقاء لنسيم وبالتالي فهما أصدقاء لأخيه أحمد.

صار أحمد بمثابة الصديق المصري الجديد لمارجريت وروني اللذان كانا يتعاملان مع أحمد ونسيم على أنهما من أفراد الأسرة.

تكررت أيام الأحاد وتكررت لقاءات أحمد ونسيم مع مارجريت وروني. الجميل في هذه اللقاءات أن مارجريت كانت تطلب من كل منهما أن يملأ كيس بلاستيكي من الحجم الكبير بكل ما يصلح لهما أو لأقاربهما مما هو معروض من ملابس وأشياء أخرى معروضة لديها للبيع، فكان يوم الأحد بالنسبة لأحمد ونسيم هو يوم الحصاد.

وعندما اعترف أحمد لمارجريت أنه يشعر بالخزي والعار وأنه عندما يقبل تلك الهدايا المجانية كل مرة يشعر أنه مجرد نصاب يستغل صداقته بأبرياء في عمر والديه ليسلبهما بعض ممتلكاتهما وأن ذلك يؤرقه كثيرًا.

كان رد مارجريت صادق وواضح ومريح فقد أخبرته أن كل تلك البضاعة مجانية يلقى بها السكان المحليين أمام منزلهم أو في مركز التدوير القريب منهم، وكل ما عليهم هو فرزها

واختيار الممتاز منها والصالح لأن يوضع ضمن بضاعة مارجريت التي تتميز أنها من الدرجة الأولى .

بعد سماع تلك المعلومة شعر أحمد بارتياح شديد وعرض على مارجريت أن يذهب برفقتها للمنزل للمساعدة في أعمال الفرز نظير ما يختاره لنفسه من مقتنيات.

رحبت مارجريت بالفكرة كثيرًا رغم أن ذلك كان صعب الحدوث بسبب مواعيد الجامعة حيث أن الإجازة الاسبوعية لأحمد هي السبت والأحد فقط من كل أسبوع ومنزل مارجريت يبعد كثيرًا عن سكن الطلاب في جوردن هيل.

مارجريت و روني

مارجريت إيطالية توشك أن تتم عقدها الخامس، ولكنها تبدو أصغر من ذلك بعشرة أعوام على الأقل، ربما عدم استخدامها لمساحيق التجميل التي تفرط بعض النساء في استخدامها هو سبب احتفاظها بكل ملاحة طلتها ونضارة بشرتها، كما أنها عندما تبتسم تركب آلة الزمن وتعود إلى منتصف العشرينات من عمرها.

ذلك هو تأثير السعادة الحقيقية والقلوب النقية فهي تقاوم عوامل الزمن من تجاعيد وكرمشات .

كيف أصبحت تلك الإيطالية زوجة للعملاق الاسكتلندي روني؟

مارجريت مثل معظم الإيطاليات من عشاق كرة القدم، وذلك ما أوقعها في غرام روني مهاجم فريق سيلتيك الاسكتلندي.

شاهدته يحرز الأهداف فوقعت في غرامه ووقع هو في غرام تلك المجنونة التي تصرخ باسمه بأعلى صوتها في كل مباراة له مما شجعه على إحراز أهدف أكثر.

انتهت البطولة الودية التي يشارك فيها فريق روني بتلك المدينة الساحلية الصغيرة على شواطئ المتوسط حيث تقطن عائلة مارجريت بفوز سيلتيك وزواج روني من مارجريت .

فور وطئت قدمها جلاسكو برفقة زوجها وحبيبها روني بدأت مارجريت مشروعها لإعادة التدوير، وكون زوجها هو اللاعب الأكثر شهرة هناك في ذلك الوقت ساعدها كثيرًا.

بدأت مارجريت مشروعها بالتجول بسيارتهم (بيك أب) تنادي بمكبر للصوت في أرجاء الحي "نخلصك من كل ما لا ترغب به في منزلك، فقط أخرجه إلى الباحة الأمامية ونحن سنجعلك لا تراه مرة أخرى ".

كانت مارجريت تجمع الأشياء القديمة التي يضعها سكان الحي في باحاتهم الأمامية وتصنفها وتأخذ الفرز الأول منها ثم تبيع الباقي لتجار السلع المستعملة الذين لا يهمهم جودة المباع.

وبعد ذلك تذهب إلى سوق الأحد وتبيع بضاعتها الممتازة بالسعر الذي تحدده فكل ما لديها بحالة الجديد تقريبًا .

بعد فترة استطاعت مارجريت أن تؤجر مكان دائم لها في السوق من بلدية المدينة وأصبحت معروفة لكل رواد السوق ممن يريدون ملابس وأشياء مستعملة ولكنها بالحالة الممتازة.

انشغل روني كثيرًا بكرة القدم وترك مارجريت تدير عملها الخاص الذي كان يدر عليها الكثير من المال .

ثم تعرض روني لإصابة بالغة جعلته مجبر على اعتزال لعب كرة القدم مر بعدها بحالة نفسية سيئة أبعدته تمامًا عن مجال كرة القدم، ومما زاد الطين بلة أن نادي سيلتيك لم يستعن به في أي من الوظائف التدريبية أو حتى الإدارية فأمسى روني بلا عمل.

اقترحت عليه مارجريت أن يساعدها في تجارتها فوافق على الفور ولكنه في الوقت نفسه اعتبر ذلك مجرد عمل مؤقت ريثما يؤسس عمله الخاص، والذي لم يكن ببعيد عن مجال عمل مارجريت.

فقد استقر روني على أنه سيبدأ عمله الخاص ببيع الملابس الرياضية الخاصة بفريقه "سيلتيك جلاسكو".

واستمر الحال على ذلك روني ومارجريت جيران في السوق، هو يبيع ملابس رياضية جديدة خاصة بفريقه سيلتيك وهي تبيع ملابس مستعملة من النوعية الممتازة.

جيران في العمل وشريكان في المنزل والحياة. ينشران المحبة والسلام ويوزعان الابتسامات على كل من حولهما ويبقى شيء واحد فقط غامض وغير مفهوم وهو حبهما الشديد للمصريين وتكوينهم صداقات حقيقية معهم.

سارة

تكررت لقاءات الأحاد وتوطدت العلاقة بين أحمد ومارجريت وروني أصبحوا أصدقاء فعليًا بلا وسيط بينهم، ربما كادت علاقتها بأحمد تكون أقوى من علاقتها بنسيم سبب الصداقة بينهم.

في أحد أيام الأحد وعند الثانية عشرة تمامًا بتوقيت جلاسكو ظهرت من العدم فتاة تصغر أحمد بحوالي أربعة أعوام.

فور رؤيته لها أصيب أحمد بما يشبه السكتة الدماغية التصلبية - لا أعلم إن كان ذلك المصطلح علمي أو هو مجرد كلمات من اختراعي لكي أستطيع أن أصف ما حدث لأحمد- .

الفتاة ذات البشرة الحمرية والشعر البنى الداكن المسترسل على كتفيها وذلك الأنف الفرعوني الصغير مع تلك العيون الملونة بلون بين العسلي والأخضر الزيتوني اقتربت من المنطقة المخصصة لمارجريت وروني ومع تقدم صاحبة الجسم الرشيق ذات الملامح سالفة الذكر ناحيتهم تصلب أحمد مكانه فاتحًا فاهه دون حركة أو صوت، ثم سالت دموع على وجنتي المذكور وهو ينادي بنبرة تعجب وبصوت خافت حزين "سارة"!!!

فور تلفظه بالاسم التفتت مارجريت ناحيته ولاحظت الدموع التي كان يحاول تجفيفها وسألته بتعجب "هل تعرف ابنتي سارة؟؟؟"

اكتمل المشهد بدخول الجميلة في اللوحة وانشغل عقل أحمد بمحاولة تفسير الدموع على وجهه وكيف عرف اسم ابنة روني ومارجريت .

لم يأت روني أو مارجريت على ذكر اسماء أي من أولادهما أمام أحمد أو نسيم وكلاهما يعلم ذلك جيدًا.

إلا أن أحمد أخبرهما أنه خمن أن تلك الجميلة هي ابنتها سارة التي سمعها يتحدثان عنها أكثر من مرة عندما وجدها تتجه نحوهما بكل ثقة وعلى وجهها تلك الابتسامة التي ورثتها عن أمها.

لم يتطرق أحمد إلى تفسير الدموع التي سالت على جانبي وجهه منذ لحظات.

سارة ابنة مارجريت وروني نسخة طبق الأصل من سارة الصباغ.

علمت مارجريت أن الأمر يحوي سرًا لذلك لم تضع المزيد من الضغوط أو طلبات التفسير التي ربما تضع أحمد في موقف محرج وربما يكون ذلك سببًا في توقفه عن لقاءهم يوم الأحد الذي أصبح من أسعد الأيام لكل أطراف ذلك اللقاء.

انضمت سارة إلى حلقة الجالسين وساعدتهم في عمليات البيع والشراء وتبادلت معهم أطراف الحديث وقصت عليهم كيف تركت عملها في موطن والدتها إيطاليا بعد أن تشاجرت مع مدير المدرسة التي تعمل بها كمدرسة للغة الانجليزية في مسقط رأس أمها حيث كانت تسكن برفقة جديها. عادت سارة إلى حضن أمها الدافئ رغم برودة الأجواء وقررت أن تمكث معهم بضعة شهور في فترة انتقالية قبل البحث عن عمل جديد في مدرسة أخرى تدرس اللغة الإنجليزية كلغة ثانية.

من النظرة الأولى التي تبادلها أحمد وسارة شعر كلاهما أن هناك شيء خفى مشترك بينهما أضف إلى ذلك كونهما يمتهنان نفس المهنة السامية. بعد آحاد عدة توطدت علاقة أحمد وسارة وعرف كل منهما أن علاقتهما ليست إلا علاقة حب حقيقي تنقشع عنها الغيوم يومًا بعد يوم ويتبدد الضباب الخافي لها أسبوعًا بعد أسبوع . أصبحت سارة تنتظر كل أحد لتسمع الكلمة السحرية التي ينتهى بها كل الغموض وتتضح الحقائق ويصبح الأمر جليًا ورسميًا، متى سيقول لها أحمد "أحبك يا سارة؟ "

****

عزيزي القارئ ستأتي تلك اللقطة التي يعترف فيها أحمد بحبه لسارة وسأذكركم أنني أخبرتكم أنها ستحدث أنا مثلكم لا أعلم متى ولكني على يقين أن أحمد في كل ليلة سبت يجهز خطبة غرامية بديعة ليلقيها على مسامع فتاته وينهيها معترفًا بحبه لها من أول نظرة. ولكن فور رؤيتها فجر الأحد في السوق تتبخر حروفه الغرامية وتتحول لقصص كوميدية تجعل حبيبته تكاد تلقى مصرعها ضحكًا.

السوق السوداء

فور عودته من سوق الأحد في المرة الأولى التي ذهب فيها برفقة نسيم وبيتر، توجه أحمد إلى غرفة عماد وسأله إن كان وجد طريقة لبيع صناديق السجائر التي بحوزته؟

نفي عماد حدوث ذلك وأخبر أحمد عن مدي قلقه إن فشل في تصريف ما بحوزته، كما أنه يوجد كثيرين ممن يشاركونه ذلك القلق.

تفاوض أحمد مع عماد عن سعر يرضى به هو والأخرين على أن يمهلونه حتى موعد الراتب الشهري القادم ليسدد لهم ثمن بضاعتهم وتنتقل بهمها إلى عهدته.

بعد ثلاث أيام فقط انتقلت كل صناديق السجائر من الغرف المختلفة في مخيم الطلاب لتجتمع جميعًا في غرفة أحمد بعد أن تم الاتفاق على السعر وطريقة وموعد أقصى للسداد.

كانت خطة أحمد تقتضي بأن يجعل بيتر يتأكد أنه يمتلك الكثير من صناديق السجائر ليظل طوع أمره هو وصديقه نسيم.

الأحد التالي كان موعد تنفيذ الخطوة الأولى من الخطة حين طلب أحمد من نسيم وبيتر الانضمام له في غرفته حتي يتناول قهوته ويصبح جاهزًا للانطلاق بصحبتهم في رحلة الأحد.

تعمد أحمد ترك دولاب ملابسه المكدس بصناديق السجائر مفتوحًا حتى يتيح لبيتر رؤية ما بداخله.

فور تأكده من وجود مبتغاه صار كالتابع المطيع الذي ينتظر الفرصة ليفاتح أحمد في أمر شراء ما يمتلكه.

تفاوض أحمد معه في السعر وكان حريصًا ألا يبيعه كل ما يمتلك لأنه يعلم أنه فور تأكد بيتر أن السجائر نفذت سيتبخر مختفيًا ويتركه رفقة صديقه يعانيان مشقة رحلة الأحد التي أصبحت من أهم طقوس أحمد الأسبوعية.

استمر البيع أسبوع بعد أسبوع وحرص أحمد عشية كل أحد بعد بيع الكمية المخطط لها أن يجعل بيتر يرى بعض صناديق أخرى ليعود الأحد التالي لاصطحابها.

لم يكن بيتر شخصًا متزنًا بالكامل، فزيجته من عجوز اسكتلندية ليحصل على الإقامة جعلته يبحث عن علاقات مع فتيات في نفس عمره أو أقل بقليل.

بعد أن أنهى بيتر صفقة يوم الأحد مع أحمد وأثناء توديعه واصطحابه لمغادرة المبنى، تصادف خروج بيتر مع أحمد مقابلة بعض المصريات زميلات أحمد في البعثة فبادلهم أحمد التحية.

طلب بيتر من أحمد أن يعطيه رقم هاتف إحداهن إن كان يملكه.

هاج أحمد وأمسك بطوق بيتر أمام الجميع وسبه بأفظع الألفاظ وأقسم بأغلظ الأيمان أن يقتله إن خطت قدمه حرم السكن الجامعي مرة أخرى.

حاول بيتر أن يعتذر أو أن يدعي أنه كان يمزح إلا أن ذلك لم يجدي نفعًا، فآثر السلامة وغادر.

مساء الأربعاء بينما الكل جلوس في قاعة التلفاز وصل بيتر وطلب من أحمد أن يهدأ ويخرج معه لتهدئة الأمور بينهما.

رغم غيظه وغضبه خرج أحمد مع بيتر في ذلك الطقس الذي بدأ يسوء وتتساقط الثلوج في ليلة حالكة الظلام,

فور ابتعادهم عن السكن الطلابي بدأ بيتر حديثه بالاعتذار وأنه لن يقدم على طلبه السالف مرة أخرى وأبدى ندمه الشديد على جرأته في الحديث مع أحمد في أمر يعتبر الشرقي التفريط والتهاون فيه من قدسية التفريط في دينه على اختلاف ملته.

تابع بيتر حديثه بأنه تورط مع بعض الأشقياء من تجار السوق السوداء ووعدهم بتوفير كمية من صناديق السجائر ظن أنها بحوزة أحمد، وتسلم منهم عربون لتلك الصفقة المحتملة.

بعد المشادة التي دارت بين أحمد وبيتر حاول بيتر إلغاء الصفقة ولكن الأشقياء ظنوا أنه سيبيع ما بحوزته للمنافس.

استمع أحمد بهدوء إلى حديث بيتر ثم سأله عما يريده منه، تعجب بيتر وطلب بهدوء صناديق السجائر بحوزته ليسلمها لهؤلاء الأشقياء الذين ينتظرون بغضب عارم في سيارته خارج سور الحرم السكني في انتظار بيتر وصناديق السجائر.

ضحك أحمد بل قهقه وأخبر بيتر أن لديه صندوق واحد وليس عشرون صندوق كما جعله يظن.

لطم بيتر خديه وبكى مثل طفل فعل مصيبة وينتظره عقاب أليم.

ثم أخرج هاتفه وتصفحه وطلب من أحمد أن يجري اتصالًا بأحد المجانين الذين ينتظرون عودته بصناديق السجائر ويقنعهم أنه ليس هناك إلا صندوق واحد وليس الكمية التي يتوقعونها.

أخرج أحمد هاتفه واتصل وبدأ حديثه بهدوء محاولًا إقناع محدثه بالوضع القائم، إلا أن الأخر بدأ بالسب والقذف والتوعد واصفًا أحمد وبيتر بالنصابين وأنهما سينالا عقابهما على ذلك الخداع.

لم يكن أحمد مضطرًا لسماع المزيد من ذلك الهراء فأنهى المكالمة وعاد إلى السكن الجامعي يصارع الثلوج التي كست الطرقات وجعلت السير مرهق ومتعب.

عاد أحمد إلى قاعة التلفاز وقد ظهرت عليه أثار التعب والإرهاق.

الهروب

نسي أحمد ما حدث في الليلة السابقة وكان كل تفكيره منصب حول الطريقة التي سيسلكها ليعترف بحبه لساره التي أوقعته في حبائلها منذ وقع بصره عليها للمرة الأولى.

قرر أحمد أن يقولها الأحد القادم ذلك الأحد لن يقول أي شيء قبل أن يقول لحبيبته "أحبك يا سارة" ظل أحمد طيلة الخميس والجمعة يتدرب على تلك الكلمات القليلة ليلًا ونهارًا وبين صلواته التي لم ينس أو يسهو عن واحدة من خمستها يوميًا .

ولكن لسوء الحظ فقد استيقظ أحمد على خبر الجثة التي اكتشفت عند ذوبان الثلوج صباح السبت.

ولم تكن أي جثة بل كانت جثة بيتر المصري الذي رآه معظم قاطني السكن الجامعي يتوعده بالقتل وعلم البقية بما حدث.

نعلم أن تلك المرة لم تكن الأولى التي يهرب فيها أحمد منصور من جرم اتهم به أو جريمة ارتكبها.

ولكنها كانت المرة الأولى التي كان يهرب فيها في بلاد هو غريب كليةً عنها وإلى وجهة لا يعلم إن كان من فيها سيحسن استقباله ويخفيه عن أعين الباحثين عنه، أم أنها ستكون النهاية لهروبه وسيكون مستودعه القادم هو أقرب نقطة شرطة.

انسل أحمد خفية متسللًا خارج ربوة "جوردن هيل" يعلم جيدًا وجهته التي لا يتوقع أحد من زملائه أو أي من أفراد شرطة جلاسكو أن تكون مقصده.

كانت سيقانه هي وسيلته للتنقل وذاكرته هي بوصلته التي توجهه وسحائب سماء جلاسكو التي تخفي الشمس الدافئة تارةً وتفشل في حجب أشعتها عن أجساد المارة تارةً أخرى هي ستاره وستره، ناهيك أنه لا أحد يعرف هويته أو الجريمة التي يهرب من عواقبها ولم يكن الوقت قد مر منه القدر الكافي ليصدر أي تعميم بالقبض عليه أو الإرشاد عنه.

كانت وجهته هي الأرض المخصصة لسوق الأحد الأسبوعي (Sunday market).

كانت رحلة أحمد ماشيًا إلى سوق الأحد ليست بالقصيرة فخمسة أميال تستغرق أكثر من ساعتين ونصف من المشي المتواصل.

علم أحمد أنه اختار الطريق الأصعب ليخوض دروبه ولكن الخيارات الأخرى لم تكن أقل وعورة أو خطورة عما اختاره.

اختار أحمد أن يستنجد بصديقته مارجريت وزوجها روني .

فر هاربًا إلى حيث سيصرخ مستنجدًا بأهل حبيبته ليساعدوه بدلًا أن يصرخ معترفًا بحبه لها .

هكذا صارت الأمور وهكذا كان على أحمد أن يقطع الطريق بكامله سيرًا إلى سوق الأحد وينتظر روني ومارجريت وسارة هناك على أمل أن يغفروا له خطيئته ويخفوه عن أعين الباحثين عنه، ثم ربما يقبلوا به حبيبًا لابنتهم الجميلة سارة.

وصل أحمد إلى أرض سوق الأحد بمنطقة "بلوتشيرن" حوالي الثانية عشر ظهرًا فتوضأ وصلي وافترش الأرض في المكان المخصص لبضائع مارجريت وروني منتظرًا مجيئهما بصحبة سارة التي صارت لا تفوت أحد دون القدوم برفقة والديها لتقضي اليوم مع أحمد.

كان لديه أكثر من خمسة عشر ساعة ليفكر فيما اقترفه ليس فقط تلك المرة ولكن ليراجع كل جرائمه السابقة ربما يكون ما هو فيه الآن الجزاء الوفاق لكل فعلة فلت من عقابها وكل جريمة اقترفها ولم يحاسب عليها.

أنا بريء

تعجبت سارة كثيرًا فور رؤيتها لأحمد يغط في نوم عميق مفترشًا الأرض أمام كشك والدتها ومتخذًا من حقيبته وسادة.

اعتقدت أن الوقت قد حان لتسمع الكلمة التي تنتظر سماعها منذ عدة أسابيع.

لم تكن حيرة روني ومارجريت بقدر تعجب سارة. ربما الخبرات المكتسبة تجعل الأمور العجيبة مجرد مسائل بسيطة لمن تقدم بهم العمر.

استيقظ أحمد عندما سمع وقع أقدامهم بالقرب منه.

لم تتوقع سارة ما كانت تبغاه بعد أن لاحظت الخوف والقلق الذي يعتري وجه أحمد.

هنا جاء دور روني لينصت لأنه متأكد أن لدى أحمد الكثير ليقوله ويحكيه.

انزوى أحمد برفقة روني في ركن هادئ وبدأ يقص عليه حكايته مع السجائر وبيتر الذي صار هو المتهم الأول بقتله بعد كل الشواهد والأحداث التي تشير بما لا يدع مجالًا للشك أنه القاتل.

استمع روني إلى كل كلمة قالها أحمد وفكر في كل أحداث ليلة الأربعاء منذ أن وصل بيتر إلى مخيم الطلاب وحتى عودة أحمد خائر القوى.

لم يكن اللغز يحتاج إلى الكثير من التفكير لتتضح خفاياه.

لقد غادر أحمد بعد أن أنهى المكالمة الهاتفية مع ذلك الشقي.

عاد بيتر إلى السيارة فوجد الأشقياء في انتظاره.

دب جدال شديد بينهم بسبب الصفقة الفاسدة التي لم يكتب لها اكتمال.

احتدم النقاش وتحول لشجار عنيف قتل خلاله بيتر، فقام القتلة بإخفاء جثته بين الشجيرات وتغطيتها بالثلوج.

هذا هو السيناريو الوحيد المنطقي الذي يمكن تخيله، هذا إن كان أحمد صادقًا فيما يقول وهو ما يعول عليه روني في خطة الإنقاذ التي وضعها.

أنهى أحمد حديثة وحدد روني الخطوة التالية والتي تقتضي بعودة سارة إلى المنزل في التو والحال برفقة أحمد ليختفي هناك عن الأنظار، حيث أن رواد السوق على وشك الوصول

وبالتأكيد سيكون هناك الكثير من المصريين أعضاء البعثة زملائه ومن الأكيد أن يصل نسيم في أي لحظة.

انصرف أحمد وسارة وبدأ توافد المصريين.

ظهر نسيم في الأفق يهرول مسرعًا نحو روني ومارجريت.

لم يبدأهما نسيم بالسلام والأحضان كالعادة، ولكنه بادرهما بالسؤال عن أحمد وإن كانا يعرفان له عنوانًا. لم يعقب أي منهما بحرف على سؤال نسيم سوى إيماءة مارجريت النافية.

انطلق لسان نسيم يسرد أحداث اليوم الفائت منتهيًا باختفاء أحمد وغلقة لتليفونه وتعذر الوصول إليه.

أنهى نسيم قصته التي كانت متوافقة تمامًا مع كل ما ذكره أحمد فكانت دليلًا على مصداقيته وجعلت روني لا يندم على ثقته به.

انتهى اليوم وغادر نسيم دون هدايا مثل كل مرة لأنه كان منشغل البال بصديقه وما سيحدث له.

وصل أحمد برفقة سارة إلى منزلهما ذو الطابع الاسكتلندي التقليدي بطابقيه وباحته الأمامية والنوافذ الزجاجية الدائرية في الطابق السفلي والمستطيلة في غرف الطابق الثاني.

أرشدته سارة إلى غرفة شقيقها ليستريح ريثما يعود والديها ويفكروا في الخطوة القادمة سويًا.

وصل الزوجان قبل أن يستيقظ أحمد من نومه.

انعدام الأمان يجعل العقل في عمل دؤوب فيستحيل على المهدد أن يجافيه النوم، إلا إنه شعر بأنه بعيد عن كل المخاطر والتهديدات التي يهابها. لذلك بمجرد أن رمى جسده على سرير "أدم" شقيق سارة فقد أحمد الشعور بما حوله ونام في سبات عميق.

استيقظ أحمد وشارك الأسرة وجبتهم المسائية ثم بدأ التخطيط للخطوة التالية.

فتح أحمد جواله وأعطى روني رقم هاتف الشقي من تجار السوق السوداء الذي هاتفه ليلة مقتل بيتر. ثم أغلق الهاتف مرة أخرى فور إنهاء الأمر.

انطلق روني في خطته التي لم يطلع عليها أحد وترك أحمد رفيقًا لمارجريت وسارة.

كان الوقت هو كل ما لدى أحمد وسارة ومارجريت.

الوقت برفقة الطيبين يجعلك تخرج كل ما في بواطن أبار أسرارك بكل أريحية وتحكي كل ما تضمره نفسك بكل سرور.

حان وقت كشف كل الأوراق.

بداية استغل أحمد وجوده في المطبخ لمعاونة سارة في إعداد الشاي واعترف لها بحبه.

استدارت سارة وعينيها تلمعان سعادةً وفرحًا. وأعلنت بدورها عن وقوعها في غرامه فور رأت النظرة التي رمقها بها فور رؤيته لها في المرة الأولي وأنها كانت تنتظر أن يبادر باعترافه وإلا كانت الخطوة الأولى ستكون من نصيبها إن لزم الأمر.

خرج الحبيبان يحملان الشاي وبضع كعكات وقد تبدل حالهما.

لاحظت مارجريت هذا التحول فباغتتهما بسؤال عجيب "هل تم الأمر؟ هل سقط كلًا منكما في غرام الأخر؟"

الايماءات الإيجابية والابتسامات النقية كانت الرد على ذلك.

لم تنتظر مارجريت أن تهدأ المشاعر وعالجت أحمد بسؤال أخر جعل كل ملامح وجهه تتبدل "من سارة الأخرى وما حكايتها؟"

قص أحمد حكايته بكل تفاصيلها على مسمع كلًا من سارة ومارجريت.

بكيا وضحكا وابتسما وبكيا ثم أنهى أحمد حكايته بأنه يؤمن أن الله أرسل له سارة النسخة المتطابقة مع زوجته المتوفية جائزةً ومكافأة على صبره.

أكد أحمد لسارة أنه يحبها بطريقة مختلفة رغم أن تطابق ملامحها مع حبيبته السابقة كان هو الدافع الأساسي الذي جذبه لها.

لم تكن سارة من ذلك الصنف من النساء الذي يتصيد الفرص ليحزن ويتمسك بكل احتمال لافتعال مشكلة.

آمنت سارة أن أحمد يعشق زوجته الراحلة ولن تتمكن أنثى أن تأخذ مكانها، وعليه فإن كان يراها صورة طبق الأصل منها فهنيئًا لها بكل ذلك الحب الذي ورثته عن الراحلة إضافة إلى نصيبها الأصلي من قلب أحمد.

الأهم في الأمر أنها وجدت من يخطف قلبها ويأسر روحها ويجعلها تنسى كل ما يتعلق باختلاف الديانات أو الجنسيات وتقتنع قناعة لا مزحزح لثباتها أن أحمد هو فارس أحلامها وأنها ستقاتل العالم كله لتبقى بجواره زوجة وحبيبة ورفيقة.

الكل الأن في انتظار عودة روني بالأخبار الطيبة أو المخيبة للآمال قبل الانطلاق نحو الخطوة التالية.

أدم أم عامر؟؟؟؟؟؟

انفتح الباب وظن الموجودون أن القادم هو روني ولكن شاب في مثل سن أحمد تقريبًا دلف للداخل.

"رغم ملامحك الشرقية أعتقد أنك أدم شقيق سارة الأكبر" قالها أحمد ونظرة الدهشة لم تفارق قسماته.

"ملامحك الشرقية تقول أنك أحمد الذي تمطرني سارة بكل تفاصيله وحكاياته كل حين" قالها أدم وصافحهم وصعد إلى غرفته ليبدل ملابسه ويستريح.

ما هذا اللغز الذي ظهر من العدم. توقع أحمد أن يكون أدم شاب له ملامح أوروبية وليست شرقية خالصة تكاد تجزم أنها مصرية.

نظر أحمد إلى مارجريت التي ابتسمت بدورها وقالت "ربما حان الوقت لإزاحة الستار عن كل الأسرار."

وانطلقت مارجريت تقص حكاية ابنها البكر ادم.

"أصيب روني إصابة بالغة، وكانت حالته النفسية سيئة للغاية.

اقترحت عليه أن نسافر إلى إيطاليا لتمضية إجازة لاستعادة التوازن واعادة التفكير فيما يخص حياته المهنية بعد أن أخبره الطبيب أن مهنته كلاعب كرة قدم انتهت فعليًا.

كان روني يقضي معظم وقته راقدًا في مواجهة المتوسط لا أعلم فيما يفكر ولكني كنت برفقته طيلة الوقت.

نقضي أمسيتنا سويًا ولا ندخل المنزل إلا احتماءً من لهيب شمس الظهيرة.

بصفتنا نسكن في منزل على الشاطئ المواجه للشاطئ الليبي فإن رؤية جثث طافية كان معتادًا من حين لأخر.

فبعض المهاجرين غير الشرعيين يفشلون في السباحة حتى الشاطئ الإيطالي ويمسى غريقًا تأكل جسده الأسماك أن ينجو بجسده من براثن وحوش البحر وتظهر جثته طافية قبالة شواطئنا.

تلك المرة التي كنت أراقب فيها الشاطئ بينما كان روني مستلقيًا بجواري لم تكن جثث طافية هي ما ظهرت أمام ناظري.

رأيت طوقي نجاة يحيط كلًا منهما بجسد طفل لم يبلغ العاشرة.

أيقظت روني وفور رؤيته لما أرى قفز إلى المياه سابحًا نحو الطفل الأقرب فجذبه نحو الشاطئ، ثم عاد وأحضر الطفل الأخر. وحملناهما داخلين منزلنا محاولين تقديم الاسعافات الأولية حتى تأتي سيارة الاسعاف التي قمت بمهاتفتها فور دخولي للمنزل.

كان كل طفل يحمل حول رقبته شريط قماشي مربوط به كيس بلاستيكي وبداخل كل كيس مبلغ من المال وجواز سفر يحمل بياناته.

خلعنا ملابس الطفلين المبللة واستعرت ملابس جافة من دولاب ابن أخي وألبسناها للطفلين الذين كانا في حالة يُرثى لها من عطش وجوع وأثار تلاطم الأمواج بجسديهما.

ذهبت برفقة الطفلين إلى المستشفى في سيارة الاسعاف، بينما تبعني روني بسيارتنا.

طلبت مني موظفة الاستقبال بقسم الطوارئ كتابة بيانات الطفلين ولأن روني لم يحضر جوازات السفر الطفلين فقد ادعيت كذبًا أنهما أطفالي وسجلت بياناتهما بناءً على ذلك، أدم ومارك.

كانت حالة مارك الصحية أفضل كثيرًا من أدم، وبعد تقديم الاسعافات الأولية والماء وبعض البسكويت تعافى تمامًا فطلبت منه أن ينتظرني بصحبة روني في منطقة الانتظار حتى أطمأن على أخيه ونغادر جميعًا عائدين لمنزل والدتي.

بقيت بصحبة أدم طيلة ساعتين حتي تجاوز الخطر وصرح لنا الطبيب بالمغادرة.

حملت أدم بين ذراعي وتوجهت لمنطقة الانتظار لأغادر مع روني ومارك، لكني فوجئت أن مارك ليس برفقة روني ولم يره منذ وصل للمستشفى وقبع منتظرًا قبالة الاستقبال.

بحثنا في كل محيط المستشفى عن أي أثر لمارك، وعندما فقدنا كل أمل في ايجاده عدنا إلى المنزل بصحبة أدم الذي قررت بعد ذلك أن أخفى أوراق ثبوتيته وأن أتقدم بطلب رسمي لأتبناه أنا وروني الذي رحب بالفكرة كثيرًا.

ما دفعني لذلك سببان، الأول أنني كنت على يقين أن والدي الطفلين لم ينجوا من الغرق أثناء محاولة السباحة نحو الشاطئ وكانت النجاة فقط من نصيب الطفلين الذين أصبحا من وجهة نظري يتيمين. أما الدافع الثاني فكان عدم انجابي طفل لروني بعد مرور ثلاث سنوات من الزواج.

ما جعلني أشعر بسوء بالغ أن مارك ربما يكون قد شعر بالخوف وقرر الهرب، وللأسف رغم بقائنا لمدة جاوزت الستة أشهر حتى ننهي اجراءات التبني، ورغم البحث المكثف عن مارك فلم نستطع أن نجده أو أن نستدل على اشارة تفيدنا عن مكان وجوده.

بعد أن عدنا للمنزل وعاد أدم إلى كامل وعيه، أخبرنا أن اسمه الحقيقي "عامر" وأن من أطلقت عليه مارك هو شقيقه الأكبر "على".

قص لنا أنهما كانا برفقة والدتهما "حسناء" مسافرين في قارب ثم فجأة بدأ الكل يقفز في الماء فقفز برفقة أخيه وظلا ممسكان بطوق أحدهما الأخر حتى غابا عن الوعي بعد أن أدركهما الجوع والعطش.

كما أنهما لم يستطيعا أن يجدا والدتهما مرة ثانية بعد قفزهما في الماء.

أنهت مارجريت سرد روايتها بأن الله رزقها بسارة بعد عام واحد من تبني عامر الذي سجلت اسمه في كل الأوراق الرسمية "أدم" إلا أنها مازالت تحتفظ بجوازي سفر الطفلين ربما يريد أدم أن يسافر إلى مصر ليبحث عن عائلة أو أقارب هناك.

انضم أدم للحضور ولم يكن قد سمع شيئًا من القصة التي روتها مارجريت رغم أنه يعلمها جيدًا.

فاجأه أحمد بقوله "أهلًا يا عامر. كيف حالك؟"

ضحك أدم وقال " الحمد لله أفضل من حالك. رغم أنه تنتابني رغبة عارمة بمعرفة أصولي كلما رأيت مصري أو ذكر اسم مصر أمامي."

دليل البراءة

في تلك اللحظة انفتح الباب مرة أخرى وظهر هذه المرة روني لاهثًا لكن كانت ابتسامته تدل أنه يحمل بعض الأخبار السارة.

جلس روني وطلب بعض الشاي الساخن ليقاوم برودة الجو إلا أن طلبه قوبل بالتأجيل حيث الجميع متشوق لسماع ما يحمل من أخبار.

"مهنتي السابقة جعلتني أكون شبكة من المعارف في مختلف الأماكن. تذكرت الشرطي "دنيال" الذي يعمل حاليًا بقسم شرطة جورن هيل.

ذهبت لزيارته مدعيًا أن أحد المصريين من أعضاء البعثة المصرية اشترى مني بعض الملابس ووعدني بالدفع اليوم ولم يحضر للسوق ولم يرسل أحدًا نيابة عنه، فأتيت إلى القسم لأجد من يساعدني في تحصيل المبلغ من المذكور.

وعندما سألني عن اسم ذلك المصري قلت له "أحمد منصور" فشهق في تعجب وأخبرني بشأن الجثة.

كما أخبرني أنهم وجدوا سلاح الجريمة – قضيب حديدي استعمل لضرب القتيل على رأسه حتى فارق الحياة يحمل بعضًا من دم القتيل ومطبوع عليه أثار بصمات أصابع ويد القاتل.

طلبت منه أن يخبرني فور أن يجد المتهم ووعدته أن أبلغ عن مكان أحمد إن استطعت الوصول إليه.

وتركته وجئت مسرعًا لأخبركم بخطوتنا التالية.

ألم يأن لي أن أحصل على كوب ساخن من الشاي؟"

نهض أدم ليجلب الشاي للجميع وتساءلت سارة عن الخطوة التالية.

أخبرهم روني أنه في الصباح الباكر سيصطحب أحمد ويذهبا سويًا إلى قسم الشرطة ويسلم نفسه ويحكي لهم كل تفاصيل ما حدث ويمدهم برقم من يعتقدون أنه القاتل.

انتهت السهرة وصعد كل إلى غرفة نومه. وانضم أحمد إلى أدم في غرفته وتبادلا أطراف الحديث.

بدأ أدم يحكي عما ظل عالقًا في ذاكرته من ذكريات الطفولة وتعلقه الشديد بوالدته والتصاقه بها.

كيف يتذكر فيلا والده حتى أنه مازال يتذكر العنوان جيدًا "قرية ميت موسى – مركز شبين الكوم – محافظة المنوفية."

نهض أحمد جالسًا فور سماعه عنوان فيلا والد أدم الحقيقي وتنبهت كل حواسه وقال له "هل انت من ميت موسى؟ إن الفاصل بين موطني قرية جنزور وبين موطن والدك الحقيقي قرية ميت موسى مجرد ترعة لا يتجاوز عرضها الخمسين مترًا.

أحضر جواز سفرك لعلي أستطيع أن أتعرف على أي من أهلك."

انتفض أدم وأخذ يعبث ببعض الأوراق في دولاب ملابسه وأخرج جوازي سفر أحدهما يحمل اسم "عامر محسن المنشاوي" والأخر "على محسن المنشاوي".

تفحص أحمد جوازي السفر جيدًا وأقسم بربه أن فيلا محسن المنشاوي تقع على شاطيء ترعة القاصد من ناحية قرية ميت موسى في مواجهة حقل والده تمامًا.

"كما أن فيلا المنشاوي شهيرة جدًا حيث مقر شركة "المنشاوي والغرباوي" لتجميع وتصدير الفاكهة والخضار.

كل فلاح في المنطقة يزرع الخضروات الطازجة بهدف التصدير يعرف شركة المنشاوي جيدًا ويتعامل مع أخيك علي المنشاوي الذي يدير الشركة ويقطن في فيلا والدك برفقة والدتك السيد "حسناء" بعد أن توفي زوجها وشريكها "مسعود الغرباوي". قالها أحمد وملامحه توحي أن كلامه لا مجال فيه للشك.

انتهى الحديث بوعد من أحمد إن كتبت له النجاة من مصيبته أن يستضيف أدم في منزله في جنزور وأن يذهب برفقته ليقابل أمه وأخيه.

لم يكن أدم هو الوحيد من أسرة روني الذي يريد نجاة أحمد من مصيبته ليتمكن من السفر إلى مصر وزيارة أحمد في موطنه جنزور، كانت سارة أكثر توقًا إلى ذلك وربما نيتها البقاء هناك برفقته زوجة وحبيبة.

استيقظ روني مبكرًا وتوجه برفقة أحمد إلى قسم الشرطة وقابل روني صديقه وترك أحمد يقص عليه ما حدث ليلة مقتل بيتر.

استخدم الشرطي رقم الهاتف للبحث عن بيانات القاتل المحتمل وتأكد أنه من أصحاب السوابق.

أنهى الشرطي إجراءات مطابقة البصمات وتأكدت الشرطة من صحة رواية أحمد وبراءته، وعليه فقد أخلت سبيله بعد أن تعهد روني بإحضاره حال احتاجت الشرطة إلى وجوده لاستكمال التحقيقات.

غادر أحمد قسم الشرطة بريئًا وأقله روني إلى مقر الجامعة حتى لا تفوته أكثر من محاضرة وليثبت للجميع أنه بريء.

على غير عادة البشر فقد اتفق الجميع على أن براءة أحمد وانضمامه إليهم مرة أخرى أدخل السعادة إلى قلوبهم وعوضهم عن جو التعاسة والحزن الذي طغى على الاجازة الأسبوعية الفائتة.

بالطبع كان أكثر المتأثرين بعودة أحمد هو صديقه الصدوق نسيم وصفي الذي خضلت دمعاته وجنتيه وضم صديقه بشدة ليتأكد أنه بخير.

انتهى اليوم الجامعي ووجد أحمد روني في انتظاره حيث أقله للمنزل ليحتفل به قبل أن يودعهم للمرة الأخيرة قبل سفره بعد أن أوشكت الثمانين يومًا على نهايتها.

رؤية أحمد يدخل منزل روني يعني براءته وكتابة النجاة لقصة حب وصلت لمرحلة النضج بينه وبين سارة التي لم تستطع أن تمنع نفسها عن معانقة الأخير بشدة.

دموع الفرح والسعادة كانت هي الموسيقى التصويرية التي تعزف في خلفية مشهد الوداع الأخير في جلاسكو على أمل اللقاء مرة أخرى قريبًا جدًا في بقعة خصبة من بقاع دلتا النيل.

انضم أحمد إلى زملائه وجهز أغراضه للعودة إلى أرض الوطن. تبادل الأصدقاء معلومات التواصل مع وعود غليظة باستمرار التواصل والتزاور وتأهب الجميع لرحلة العودة.

عودة إلى الأهل والأقارب والأحباب. عودة إلى العمل والأمل في مستقبل أفضل لتعليم اللغة الإنجليزية كما يجب.

عاد أحمد إلى بلدته وحضن والديه الذين افتقدهما كثيرًا.

دين قديم

أثناء محنته في جلاسكو عقد أحمد العزم على القيام بأمر يشعر كلما تذكر أنه لم يقم به بالخجل بل بالخزي والعار.

قرر أحمد أن يبلغ عن جريمة قتل عزمي الصباغ ويقدم الأدلة الدامغة على تورط سالم الصباغ في الأمر.

لحسن حظه فقد تولي الرائد/ منير الشربيني مهام معاون مباحث قسم شرطة بركة السبع.

صداقة قديمة تجمع منير وأحمد عن طريق قريب لمنير كان زميل دراسة في كلية التربية مع أحمد.

توجه أحمد إلى حظيرة عمه، واستخدم الفأس وحفر في موضع يعلمه تماما فلم تكفي السنوات التسع أن تمحى ذاكرة أحمد أو تجعلها مشوشة.

استخرج أحمد مبتغاه وتوجه إلى مدينة الشهداء حيث منزل صديقه.

حكى أحمد لمنير الحكاية كلها كأن الأحداث تتكرر أمام ناظريه.

ثقة منير الشديدة بأحمد جعلته يصدق كل ما ساقه من معلومات، وعليه ففي صبيحة اليوم التالي أبلغ مأمور مركز شرطة بركة السبع أنه وجد حقيبة بلاستيكية تحوي بعض الأدلة وخطاب من مجهول يحكي كل تفاصيل جريمة سالم الصباغ ضد شقيقه عزمي وتاجر المواشي التي قتل معه في نفس المكان.

اطلع سيادة المأمور على الخطاب وطلب من الأدلة الجنائية استخراج كل البصمات التي تزين سلاح الجريمة وكيس النقود القماشي الملوث بدم كل من عزمي الصباغ وتاجر البهائم. ثم استصدر من النيابة أمر ضبط واحضار المدعو سالم وأرسل قوة شرطية للقبض عليه.

بعد القبض على سالم ومواجهته بالأدلة وتطابق بصماته مع البصمات على سلاح الجريمة وسرد تفاصيل الحادث بكل دقة على مسامعه اعترف بجريمته ظنًا منه أن روح أخيه الغاضبة هي التي أخفت عنه النقود التي قتل من أجلها، كما أنها هي فاعل الخير ذاك الذي أبلغ عن الجريمة بكل تفاصيلها.. تقبل سالم عقابه بكل رضا فهو يعلم جيدًا أنه يستحق أشد العقاب على ما اقترفه في حق أخيه. بعد أن سجن سالم أحس أحمد أنه سدد كل ديونه القديمة وحانت اللحظة ليبدأ من جديد.

ضيوف بلاد برا

منتظرًا أمام صالة الوصول 2 مطار القاهرة استطاع كل حاضر أن يلاحظ اللهفة التي ينتظر بها أحمد ضيوفه.

مع اقتراب خروجهم تهللت أساريره ورسمت ابتسامة تدل على ملايين الأطنان من السعادة على وجه أحمد وبات صعبًا عليه أن يمحو من على قسماته مظاهر السعادة ويعود إلى جديته المعهودة.

تصافح الواصلون مع المنتظر وتحدثت العيون بلغة الحب ودلف الجميع داخل السيارة بعد وضع الأمتعة في الخزانة الخلفية للسيارة وربط البقية فوقها.

ساعتان هي المسافة التي استغرقتها سيارة أحمد حتى وصلت بلدته ومسقط رأسه جنزور في أعماق محافظة المنوفية حاملة بداخلها أربعة أناس تطأ أقدامهم أرض أم الدنيا لأول مرة.

كان الجميع يشعر بسعادة لا توصف خاصة سارة التي انشرح صدرها فور رؤيتها لوالدة أحمد ووالده اللذين أحسا بنفس الشعور.

بعد الراحة والغداء تحدث الجمع في الحدث الأهم وهو زواج أحمد من سارة. وتم الاتفاق على موعد عقد القران واجراءات تسجيل الزواج تبعًا لما يقتضيه القانون المصري عند الزواج بأجنبية.

بعد الانتهاء من المراسم وحفل الزواج العائلي الذي ضم إضافة إلى أفراد عائلة شهاب الدين وعائلة روني بعض أصدقاء أحمد المقربين. تم الزفاف وانتهت قصة الحب نهاية سعيدة بزواج أحمد وسارة في بداية تجربة جديدة لكليهما بصحبة إنسان من بلد أخر في قارة مختلفة يدين بدين مختلف، لكن كل الشواهد تشير أن التجربة ستكون ناجحة بامتياز.

فيلا المنشاوي

يقطن فيلا المنشاوي السيدة "حسناء" زوجة مالك الفيلا الأصلي "محسن المنشاوي" برفقة "أيمن" نجل زوجها الثاني "مسعود الغرباوي".

بعد وفاة زوجها الأول، وبعد أن فقدت طفليها "علي" وعامر" أثناء محاولتها للهجرة غير الشرعية إلى إيطاليا، أصيب حسناء ببعض الخلل العقلي، وظل مسعود الغرباوي مساعد زوجها وكاتم أسراره في الفيلا يقوم بكل الأعمال، ويعتني بصاحبة المكان، حتى عرضت عليه الزواج منها.

مسعود الغرباوي الأرمل وافق على الزواج من أرملة رب عمله؛ ليقطع الألسنة التي بدأت تصوغ الحكايات الوهمية عن قصص غرام تجمع صاحبة القصر بخادمها، والقائم على أمورها.

ومنذ اللحظة الأولى التي وقع فيها بصر حسناء على "أيمن" نجل مسعود، وبسبب ما تعرضت له من أهوال؛ جعلها ذلك تعتقد بل وتؤمن أن "أيمن" هو ابنها "علي" الذي فقدته في رحلة الموت.

فشلت كل محاولات مسعود في تصحيح ذلك الخطأ؛ لذلك تعايش معه هو وولده، وأصبح كل من يعمل في شركة المنشاوي والغرباوي يعتقد أن أيمن هو على المنشاوي، ابن محسن المنشاوي، ووريثه بعد أن توفى مسعود الغرباوي تاركًا مسؤولية إدارة الشركة والعناية بصاحبة المكان لولده أيمن.

بعد فترة من وفاة والده قرر أيمن أن يستغل جهل الجميع بما حدث لأولاد ربة عمله، واعتقادهم فور أن وطأت قدمه منزلها منذ كان في سنوات عمره الأولى، وإيمان حسناء أنه ولدها، ومعاملته على ذلك النحو، قرر أن ينتحل شخصية "على المنشاوي" فعليًا، ووجد طريقة ملتوية مكنته من الحصول على وثائق تثبت هويته الجديدة.

عاش أيمن بتلك الهوية منتحلًا الشخصية التي التبسها لفترة طويلة حتى حدث ما لم يحسب له حساب، ولم يخطر له على بال.

بعد أسبوع العسل الذي قضاه أحمد برفقة عروسه، كان أدم قد قرر أنه يريد أن يلتقى شقيقه ووالدته التي يعرفها كل شخص بمنزل منصور شهاب الدين، بل إن معظم سكان جنزور

يعرفون على المنشاوي مدير شركة "المنشاوي والغرباوي لتصدير الفاكهة والخضروات" ووالدته حسناء.

اصطحب أحمد أدم برفقته ووصلا أمام فيلا المنشاوي وطلب منه ألا يتحدث إلا عند الضرورة.

دق جرس باب الفيلا وفتح الباب، فدخل شابان في نفس عمر أيمن تقريبًا، رحب بهما أيمن، وجلس ثلاثتهم صامتين، وقبل أن يسألهما عن هويتهما، أخرج أحدهما جوازي سفر وقال بصوت واثق "نحن علي وعامر أبناء محسن المنشاوي". ثم جاء دور أحد الشابين ليسأل أيمن الذي ينتحل شخصية علي المنشاوي نفس السؤال، فتوقفت الحروف على لسانه وابتلع كلماته قبل أن تولد على شفاهه، وظل عقله يفكر في إجابة تخرجه من تلك المعضلة.

وقبل أن يجيب بأنه "علي المنشاوي"، دخلت لحظتها حسناء صاحبة الفيلا من خلفه إلى المشهد، وأجابت نيابة عنه، لتعطي إجابة فيها حل لكل المشكلات، وتسوية لكل الأوضاع المغلوطة .

وكان ردها مفاجئ لعلي المنشاوي المزيف قبل أن يفاجئ الضيوف. قالت حسناء: "دا أيمن مسعود، ابن جوزي، وشريكي".

هل عاد لها رشدها فجأة، أم أنها كانت تدعي مرضها العضال، الذي توهم الجميع أنه جعلها تتخيل أشياء غير حقيقة بالمرة، ربما ما أصاب حسناء هو حالة من النكران المؤقت لتلك الحقيقة الأليمة المتعلقة بفقدانها لولديها، وأرادت أن تستعيض عن واقع مأساتها بخيال من حياكتها؛ لتعطي لحياتها بعضًا من السعادة، ويتثنى لها ممارسة دور الأم الذي كانت قد حرمت منه منذ عقود.

الأهم بالنسبة لأيمن أن مشكلته قد حلت، وما عليه إلا أن يمزق الأوراق المزيفة، ويعود للتعامل ببطاقته الشخصية الأصلية التي ظل محتفظًا بها؛ تحسبًا لأي طاريء قد يجبره على ذلك، وقد كان.

فور دخولها للمشهد وقف ثلاثتهم احترامًا لها، وتقديرًا لهيبتها ومكانتها، كان أحمد يتقدم ثلاثتهم وبجواره متخلفًا عنه بقدم واحد "أيمن"، بينما "أدم" كان خلفهم تخفيه أجسادهم عن عيون والدته.

أنهت حسناء عبارتها المفاجئة، ثم توجهت بحديثها إلى أحمد، وأخبرته أنها تكاد تجزم رغم ما يقدمه من إثبات أنه كاذب فقلب الأم يشعر بولدها حين تراه.

في تلك اللحظة كان أدم الذي يقف خلف أحمد وأيمن، يدور ببصره في أرجاء الفيلا ويتفحصها، ويعيد لعقله تفاصيل المكان الذي عاش فيه طفولته المبكرة.

لم تكن عينا حسناء قد وقعت عليه أو لاحظت وجوده. وبينما كانت تمطر أحمد بسيل من الاتهامات، توجه أدم إلى الدور العلوي متخطيًا حسناء في فعل غريب، ودخل إلى إحدى غرف النوم، وبعد لحظات خرج وبيده لعبة على شكل دب بني اللون.

توقف أدم قبالة حسناء وقال:

"أنا أذكر تلك اللعبة جيدًا، فقد كانت هديتك الأخيرة لي قبل أن نقرر السفر، وقد خبأتها في مخبئي السري؛ حتى لا يراها علي، ويسلبني إياها كعادته كلما وجد معي لعبة أحبها."

قبل أن ينهي "أدم" أو "عامر" كلماته كانت أذرع حسناء تنفرج على اتساعها، ودموعها تنساب على وجنتيها ترحب بولدها الذي اندفس في أحضانها، بعد أن غاب عنها أكثر من ربع قرن.

تمت